حكماء وادى النيل

تأليف : محمد العزب موسى
تقديم : الدكتورة نعمات أحمد فؤاد

■ المشرف على التحرير : جمال الغيطانى ■

● العدد ٣١٥ ● نوفمبر ١٩٩٠ ●

كتاب اليوم

أنشأه

مصطفى أمين وعلى أمين

ثقافة اليوم وكل يوم

رئيس مجلس الادارة

سعيد سنبل

العدد ٣١٥ ربيع آخر ١٤١١ هـ

نوفمبر ١٩٩٠ م

تشرين الثانى

الصحافة ت ٧٥٨٨٨٨ عشرة خطوط

تلكس دولى ٩٢٢١٥ ـ محلى ٩٢٢٨٢

الاشــــتراكات

جمهورية مصر العربيه

قيمة الاشتراك السنوى ١٢ جنيه مصرى،

البريد الجوى

دول اتحاد البريد العربى والافريقى ٢٠ دولار امريكى اوما يعادله

باقى دول العالم واوربا والامريكيتين واسيا واستراليا ٢٠ دولار امريكى اوما يعادله

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور

● ترسل القيمة إلى الاشتراكات ٦ ش الصحافة القاهرة ت ٧٤٨٨٤٤ (٥ خطوط)

أسعار كتاب اليوم

المغرب	٢٠	درهم
لبنان	١٥٠٠	ليرة
الاردن	٧٥٠	فلس
العراق	٧٠٠٠	فلس
الكويت	٧٠٠	فلس
السعودية	٧	ريالات
السودان	٩٠٠	قرش
تونس	١٤٠٠	مليما
الجزائر	١٧٥٠	سنتيما
سوريا	١٤٠٠	ق س
الحبشة	٦٠٠	سنت
البحرين	٨٥٠	فلس

سلطنة عمان	٧٠٠	بيسة
غزة	٦٠٠	سنت
ج اليمنية	١٠	ريالات
الصومال بجيبوتي	٨٠	مني
السنغال	٦٠	فرنك

الامارات	٨	درهم
قطر	٨	ريالات
انجلترا	١٢٥	بنى
فرنسا	١٠	فرنك
المانيا	٥	مارك

فى الخارج

ايطاليا	٢٠٠٠	ليرة
هولندا	٥	فلورين
باكستان	٣٥	روبية
سويسرا	٤	فرنك
اليونان	١٠٠	دراخمة
النمسا	٤٠	شلن
الدنمارك	١٥	كرونات
السويد	١٥	كرون
الهند	٣٥٠	سنتا
كندا امريكا	٣٠٠	سنت
البرازيل	٤٠٠	كروزيرو
نيويورك واشنطن	٣٥٠	سنتا
لوس انجلوس	٤٠٠	سنت
استراليا	٤٠٠	سنت

● الغلاف محمود الهندى ● الماكيت محمد عفت

مقـــدمة

بقـلم : الدكتورة نعمات أحمد فؤاد

ككل شيء عظيم خالد ، الحضارة المصرية .

يكتب فيها ، وعنها ، الكاتبون جيلا وراء جيل ، ويظل فى أعماقها ، وظاهرها ، نهر دافق يقول . وليس نهرا كالنيل يروى ويروى تاريخ التاريخ على ارض صنعت للنهار .. وصنعت الانسان . وكانت صناعتها الكبـرى ، وإبداعـاتها الكبـرى ، وعطاءاتها الكبرى :

الحضـــــارة

حضارة باتعة .. رائعة .. مبدعة .. ممتعة ..

ينقدها عداتها فتطول اكثر لأن الصدق باق .

ويتغنى بها بُناتها ومعهم عشاقها حتى من الغرباء فتشرق إشراقة وجه الحبيب راى نفسه فى مرآة حبيبه .

● ● ●

قرات الكتاب لأكتب مقدمة له فسرقنى من نفسى وكدت أفرغ منه ، ولم اكتب بعد ، سطرا واحدا .

واعدت قراءته فوجدت جديدا على القارىء العام أو السواد الأعظم على الأقل . بل وجدت جديدا على أصحاب التخصصات الأخرى . من هذا ، ابعاد قصة فرعون موسى . وهنا استطيع أن اضيف اليها لأهميتها .

قد يعرف خاصة الخاصة أن الأمم لا تقاس بفرد ولو كان فرعون مصر وادع جانبا أن فرعون موسى براه واحد من كبار رجال الدين هو الامام محيى الدين بن عربى الذى يقول فى كتابه « فصوص الحكم » : (بإيمان فرعون إيمانا لازما ، وأنه لقى به طاهرا مطهرا ، سالما من العيب ، بريئا من الذنب)

وظاهره فى هذا الامام جلال الدين الدوانى فى رسالته الخطية الموجودة بدار الكتب ، مستندين الى الآية الكريمة :

(آمنت انه لا إله إلا الذى آمنت به بنو اسرائيل وانا من المسلمين) .

(سورة يونس آية ٩٠)

وجعله ابن عربى آية على عنايته سبحانه لمن يشاء حتى لا ييأس احد من رحمة الله تعالى .

(قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم) .

(سورة الزمر آية ٥٣)

مرة أخرى اقول أو :

ادع جانبا أنه استشار قومه وعمل بنصيحتهم وأن ما حز فى نفسه ، المفاجاة القاسية التى عبر عنها بقوله (آمنتم به قبل أن آذن لكم ؟) .

(سورة الأعراف آية ١٢٣)

حتة بروتوكول تحكم تفكير ملك سليل الملوك .

ادع جانبا ، انه ما من أمة آمنت كلها أو حادت كلها عن الايمان .

أدع جانبا ، أن والد ابراهيم النبى ، قد كفر .

أدع جانبا ابن نوح النبى ، وقد كفر .

أدع جانبا أن فرعون موسى ، بشر ..

موسى فى نظره ، الطفل الذى وجدوه على شاطىء النيل مجهول الأب والأم .

رباه في قصره وعلمه علم مصر .. حتى السحر تعلمه في أهناسيا من اعمال بني سويف .

هل من طبيعة البشر او طبيعة الأشياء أن يصدق فرعون بكل هيله وهيلمانه ، وللوهلة الأولى ، داعيا ، هو ربيب قصره ، اضف الى هذا أن في نفسه ، منه ، ما فيها ، بعد ان قتل احد المصريين .

وقد كذبت قريش - إلا قلة قليلة - بعد ان قطعت الانسانية من عمر الزمن دهورا بعده ، الزكي السرى الصادق الأمين وهو الذؤابة منها شرفا ومحتدا ؟

لم يكن عند قريش عذر عصبية الجنس او عقدة الثار القديم أو مبرر الاستعلاء ؟

لقد كان موسى في نظر فرعون كما جاء في القرآن الكريم ، قاتل احد رجاله حتى ليقول له في رنة الم لا تخفى .. الم ممزوج بالدهشة الحيرى :

(الم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين .. وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين) .

ولم ينكر موسى (قال فعلتها اذا وأنا من الضالين)

(سورة الشعراء الآيات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠)

آوت مصر موسى وربت وعلمت ولما اشتد عوده رأى في طريقه مصريا ، وواحدا من بني اسرائيل يتنازعان كما يحدث في حياة كل يوم من اختلاف على المصالح .. ودون أن يسأل السبب او يقف على جلية الأمر ، وكز المصرى فقضى عليه .

ثم خرج ، مسرعا ، الى مدين

ولم ينس ملك مصر .. ولا نحن مهما تقادم العهد .

(قال رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون) .

(القصص آية ٣٣)

الا يخطىء من ليسوا أنبياء ؟

وعندما يخطىء فرعون موسى هل ينسحب هذا الخطأ على كل فرعون ؟ ألم يكن « أخناتون » متساميا موحدا نبيلاً ؟

هل ملوك الفرس جميعهم ، قمبيز

هل خلفاء بنى العباس ، كلهم ، السفاح ؟

هل سائر الفاطميين ، « الحاكم » ؟

وإذا كان فرعون موسى ، مخطئا ، فموسى قتل ، منا ، نفسا وإخوة يوسف القوا أخاهم الطفل فى الجب وكذبوا على أبيهم . وأبناء يعقوب سفاحون عندما ذبحوا أهل شكيم أثناء الحفلات الشعائرية .

إذا جاز ان يحسب علينا خطأ فرعون واحد فإن من المقابل ، أن يحسب لنا أمجاد فراعين ، يكفى الواحد منهم ، أمة بأسرها ، فى باب المفاخر .

والأستاذ محمد العزب موسى يركز على قيم الفكر والعدل والفضيلة حين تركز الدراسات والكتابات على فن مصر التشكيلى دون فنها التعبيرى وما أكثره وما اغناه وما أعمقه وهو منحى جدير بالانتباه والاتجاه اليه .

هل قال بلد من البلاد ما سجلته مصر فى متون الأهرام :

أنا لم أعص اوامر الاله .

أنا لم أعق والدى .

أنا لم الوث ماء النيل .

أنا لم أصد الماء وقت جريانه .

انا لم اطفف فى الكيل .

أنا لم أغش فى القياس .

انا لم أختطف اللبن من فم الرضيع .

أنا لم أطفىء شعلة فى وقت الحاجة اليها .

وهى قيم خلقية .. وفى الوقت نفسه ركائز أساسية للدين

ديمقراطية الدين :

ملمح سجله الكاتب .

ففي مصر ، بعد الثورة الشعبية ، تحولت العبادة من « رع » الى « أوزوريس » . وهذا يعني الكثير ..

رع تتطلب عبادته وتتطلع عقيدته الى السماء ومتابعة حركات الشمس ، والكواكب والنجوم .. ولهذا كانت عقيدته الخاصة

بينما عقيدة أوزوريس منتمية الى النيل ونابعة من أرضه وزرعه .

عقيدة « رع » كانت تربط الخلود بالشواهد المادية من مقابر وتماثيل وتحنيط ومراكب شمس .

بينما عقيدة أوزوريس يحكمها الميزان وريشة العدالة .. والعدالة لا تفرق بين الناس مهما تفاوتت أقدارهم الاجتماعية .

على أن « رع » أثر ، عنه ، كما جاء في نصوص أحد التوابيت

(خلقت الأنهار العظيمة كي يستخدمها الفقير والسيد العظيم وجعلت كل انسان مثل أخيه ، ونهيتهم عن فعل الشر ولكن قلوبهم هي التي لم تفعل ما أمرت به) .

وكانه يتنصل من التفرقة بين الناس ..

في مصر اشتكى الفلاح ، واحدا من النبلاء وانتصر الملك ، له ، ورد اليه حقه .

وفي الكتاب وقفة « مقارنة » بين :

« بتاح حتب » و « لقمان الحكيم »

فقد لاحظ المؤلف أن :

— كليهما يوجه نصائحه الى ابنه

— طول العمر .

— انتهاج فضيلة التواضع ونبذ الصلف والتكبر على الناس .

اننا اذا اضفنا الى هذا توحيد مصر وقولها بالميزان والبعث

والحياة الأخرى والثواب والحساب والعقاب والجنة والنار ، عرفنا لماذا تاصل الاسلام فى مصر كما لم يفعل فى أى بلد آخر .

ونوه الكتاب بقيمة خالدة وغالية ورفيعة من قيم مصر القديمة : الكتب والكتاب . فقد جاء فى بردية من عهد الرعامسة :

- الكتب أكثر خلودا من الأهرامات .
- [redacted] هى مقاصير وأهرام فى قلوب الناس .
- ان كتابا واحدا لأكثر نفعا من بيت متين الأساس ومن مقبرة فى العزب . من قصر منيف ومن نصب فى معبد .

والكُتاب فى نظر مصر القديمة :

لم يقيموا لأنفسهم اهراما من نحاس . ولا شواهد قبور من حديد . بل جعلوا من كتب الحكمة إرثهم الوحيد كانت اضماماتُ البردى كاهنهم المرتل والواح الكتابة أبناءهم البررة وكتب التعاليم ، اهراماتهم . والقلم ابنهم . والصفحات زوجاتهم .

وهذا هو الفــرق :

حين قامت دولة الرومان على البطش والحرب ، وقامت دولة اليونان على تقسيم المجتمع الى سادة وعبيد .. وطبعا السادة هم الذين يحكمون ويتعلمون ويكتبون ويرسمون الخ ..

قامت حضارة مصر على الثقافة ياخذها ويعطيها كل ميسر لها ، موهوب . وكم من عظماء الكتاب والحكماء فى مصر ، خرجوا من صميم الشعب .. وعلى راس هؤلاء « ايمحتب » أول شخصية موسوعية فى العالم .

لقد كتب مجد مصر ، المصريون جميعا . فالملك خيتى ينصح ابنه : (لا ترفع ابن الرجل العظيم على ابن الرجل المتواضع ، بل قرب اليك الانسان حسب كفاءته الشخصية)

تقول « كريستين نوبلكور » : (التلميذ المصرى القديم اول تلميذ فى العالم) من مقال لها بمجلة هيستوريا الفرنسية التاريخية فى عدد خاص عن التعليم والثقافة ، قالت فيه :

(إن مصر هى التى اخترعت الكتابة ، والحساب ، والمدارس ، والتلمذة ومن يدرى لو لم تكن مصر قد فعلت ذلك ، لربما اتخذ تاريخ البشرية مجرى آخر) .

من تعاليم « خيتى » بن دوادف لابنه بيبى :

عليك أن توجه قلبك لقراءة الكتب .

تأمل : لا شىء يفوق قدر الكتب .

ليتنى أجعلك تحب الكتب أكثر من امك .

ليت فى مقدورى ان اظهر جمالها امام عينيك .

ان الكتابة أعظم من اية حرفة .

وهنا يرسم « خيتى » صورة كاريكاتورية لسائر الحرف .

أعتز دائما بأنه حين عاد « حورمحب » من حروبه منتصرا مظفرا ، وأراد المثال المصرى أن يصنع له تمثالا يمثل الملك الامبراطور ، طلب اليه « حورمحب » أن يكون تمثاله على هيئة الكاتب المصرى ! فى احساس دقيق وعميق بما للكتابة من معان وهالات ..

طلب « حورمحب » هذا بوراثة حضارية من البلد الذى جعل للكتابة الهة سماها « سيشات » وزوجها من اله الحكمة فى احساس وثيق بما بين الكتابة والحكمة من سمات وشيات . وفى مصر القديمة تبجيل للمعلم .

كان التلميذ ينادى معلمه « سيدى » ولعله النداء الأب لقولنا فى الريف لعريف الكُتاب فى القرية (سيدنا) . وفى مصر الحديثة يقول شاعرنا شوقى :

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

أعلمت أشرف أو أجل من الذى يبنى وينشىء أنفسا وعقولا
وكلمة أشرف فيها حس القداسة وهى غير (أعظم) أو (أكبر)
ولِم لا ؟

سبحانك اللهم خير معلم علمت بالقلم القرون الأولى
ان مصر الحديثة تسير على درب مصر القديمة فإذا التاريخ على أرضها منتظم الخطى لا تنقطع له مسيرة .

ولعل هذا التقديس للعلم من أسرار مصر . قد يفوتها الحكم .. قد تخسر معركة .. ولكنها فى القوة والضعف تشع العلم حتى لتقابل الغزو العسكرى ، حين حدوثه ، فى الفترات الحزينة ، بغزو ثقافى .. يغزو الفرس ، مصر ، ويطلب « دارا » فى إبان اشتداد مرضه ، طبيبا من مصر ..

ويتعالى الرومان بجهالة وجهامة ، غداة الفتح ، ثم يهتزون أمام سخريتها بهم ومنهم ، فيحرمون على المحامين المصريين ، الترافع ، أمام محاكم الاسكندرية لان السخرية المصرية تهز هيبة القضاء الرومانى .. ثم يئول أمرهم فى النهاية الى عبادة ايزيس فى الاسكندرية تقربا الى الشعب المصرى ثم فى روما نفسها ! وتنتقل عبادة ايزيس من روما الى فرنسا فتسمى أكبر مدنها باريس أى بيت ايزيس ولعل الذين يرجحون هذا ، يستندون الى أن « بيت » فى الهيروغليفية يسمى (بِرْ) .. وإيزيس فى الهيروغليفية « إيسه » أى (برإيسه) .. فباريس .

● ● ●

أعود الى الكتاب .. الفصل الأخير من الكتاب عقد مقارنة شائقة بين مصر القديمة ومصر الحديثة أوضح فيها وجوه الشبه بينهما خاصة فى الريف وأحواله وحرفه وبيوته وأزيائه وعاداته وتقاليده بل أسماء المدن وكثير من ألفاظ الحياة اليومية بل القصص والأساطير .. بل الموالد والأعياد كمولد الحجاج فى الأقصر وهو

خطوة بخطوة عيد أمون .. وقد فصلت هذا في أكثر من كتاب .

انها كما يقول الدكتور جمال حمدان ملتقيا مع المؤلف ومعي :

وحدة الحياة على ضفاف النيل :

معنى يلتقي عنده المخلصون لهذا البلد وسط خضم النفاق والاسترقاق والاسترزاق .

معنى كبير جامع .. وحدة يجب أن نزكيها ونحييها في نفوس المصريين خاصة النشء مناط الأمل في إقالة العثرة الحاضرة ، وموطن الرجاء .

وحدة يجب ان تلتفت اليها المدرسة المصرية التي تبدأ تدريس الأدب بالعصر الجاهلي ولا مانع عندنا من دراسته على ان ياتي في توقيته الزمني ولكن البداية هي البداية الباكرة والبكر .. هي مصر القديمة بما ابدعت من روائع خالدة في الآداب والفنون والعلوم .

وحدة يجب أن يلتفت اليها التليفزيون المصرى باعتبار التليفزيون كاداة ، معلم الشعوب بما يملك من وسائل الاستهواء وشد العدد الأكبر على تفاوت التعليم واختلاف الثقافات .

وحدة الحياة على وادى النيل يجب أن تكون :

- نقطة تحول .
- نقطة انطلاق .

إن أزمتنا ليست بالدرجة الأولى ازمة اقتصادية كما يتردد ولكنها أزمة معنوية وازمة اخلاقية .. ازمة اختراق الانسان المصرى وهنا يكون تعريفه بذاته وانعطافه الى تاريخه ليس افتخارا أو زهوا ، ولكن بثا للثقة فيه وانتشاله من وهدة اليأس وردا لغربته النفسية .. فيحترم نفسه ويجبر الآخرين على احترامه .

وهنا فقط تتخفف الحياة الحاضرة من العشوائية واهتزاز القيم ، واختلال المقاييس .. فترشد وتستقيم مسيرتها وسيرتها ..

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

(١١ م الرعـــد ١٣)

انه التغيير

مفتاحا للحل ..

وبعد فإن قارىء هذا الكتاب ، كما قرأته ، لا يملك إلا أن يشكر المصرى الأستاذ محمد العزب موسى الذى كان صادقا مع نفسه .. صادقا مع تاريخنا ..

وليس ، قيمة ، كالصدق فى كتابة الكاتبين ..

دكتورة نعمات أحمد فؤاد

القاهرة يونيه ١٩٩٠

فكرة العدالة فى مصر القديمة

لا اتصور أن هناك حضارة من الحضارات تعرضت لحملة من الافتراءات والاكاذيب والتشويه مثلما تعرضت لها الحضارة المصرية القديمة .. هذه الحملة الظالمة التى استهدفت مصر بداها بنو اسرائيل بعد خروجهم الشهير ، وشارك فيها اليونانيون الذين استوطنوا مصر فى اواخر عصورها الذهبية ، ثم الاغريق الذين جاءوها فى زمن البطالمة ، فالرومان الذين جعلوها أهراء قمح لروما وحرموا وابناءها دون سائر شعوب الامبراطورية حق المواطنة الرومانية ، ثم المسيحيون المصريون الذين فصموا تاريخها ودمروا رموز عقائدها القديمة ، فالعرب المسلمون الذين لم يروا فى تلك الحضارة العظيمة سوى الكفر والطغيان وعبادة الأوثان .

ولم تبدأ هذه الغمة فى الزوال إلا فى العصر الحديث على ايدى الدارسين والمثقفين الغربيين الذين اصابتهم الدهشة لاكتشافهم هذه الحضارة المذهلة .. اى كنز ! اية عظمة ! اية ثقافة ! تنطوى عليها تلك التحفة الكلاسيكية الرائعة المسماة مصر القديمة ؟!

ومن اشد ما يحز فى القلب أن بعضا منا نحن المصريين المحدثين ، ولنقل بل والكثيرين ، لم تصل اليهم هذه الدهشة بعد ، جهلا أو تغريرا ، فمازالوا يأنفون من ذكر مصر القديمة ، ويرونها مجرد أمة بائدة من الوثنيين ، ويفصمون بين حاضرهم وماضيهم المجيد بشتى الدعاوى الخاطئة ، كما لو كان التنكر لحضارة الأجداد هو ما يجعل عروبتهم سليمة او اسلامهم صحيحا !

هذه الافتراءات والأفكار السقيمة آن لها أن تسقط مرة واحدة والى الأبد .. آن للمصريين أن يفتحوا عيونهم على كنزهم القديم ، ليس

بما يحويه فحسب من آثار شامخة تنتشر فى انحاء الوادى وتحف فنية تزين معظم متاحف العالم ، وإنما ايضا بما كانت تنطوى عليه هذه الحضارة من قيم اخلاقية ومعنوية وفكرية رفيعة كانت بمثابة الدم الذى يجرى فى شرايينها ، وكانت هى السبب فى استمرارها وبقائها هذه الآلاف من السنين ، فلا يعقل أن تدوم حضارة ما كل هذه المدة الطويلة اذا كانت قائمة على الظلم والاستبداد ، فالظلم لا يقيم حضارة ، والاستبداد لا يسند حكما ، أو كما يقول الامام على بن ابى طالب كرم الله وجهه « الحكم يدوم مع الكفر ، ولا يدوم مع الظلم » .

★ ★ ★



فرعون موسى :

وتقوم هذه الاتهامات الخاطئة اساسا على ما يتصوره البعض من ان القرآن الكريم قد ادان مصر القديمة ، واستنكر حضارتها ، واهان اهلها ، طبقا لما فهموه من ظاهر الآيات القرآنية الخاصة بموسى وفرعون . والحقيقة ان هذه الأدلة القرآنية لا تنصب إلا على فرعون موسى وحده وحاشيته وانصاره ممن ظلوا على الكفر بعد ان تبين لهم الحق ، وفيما عدا تلك الزمرة الحاكمة ، او الطغمة الكافرة ، لا نجد فى القرآن الكريم سوى الاشادة بمصر وارضها الطيبة .

يكفى فى هذا الصدد ان نقارن بين جلساء فرعون واصحاب النمرود ، فعندما استشار فرعون جلساءه فى امر موسى وهارون دلوا على انهم من ذوى العقول الراجحة والنظرة المتحضرة ، إذ قالوا لفرعون :

« قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين .
يأتوك بكل سحار عليم » .

(الشعراء . ٣٦ ـ ٣٧)

فأين هذا من قول أصحاب النمرود لما استشارهم فى امر ابراهيم الخليل فأشاروا بقتله فورا ، إذ قالوا :

« قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين » .

(الانبياء ٦٨)

جلساء فرعون يدعون الى المواجهة بالحوار وإقامة الحجة والبرهان ، وهذا ما تم فعلا فى « يوم الزينة » حين حشر الناس ضحى ، وجرت المناظرة الكبرى بين موسى والسحرة على ما أوضح القرآن الكريم فى اجلى بيان .

وما كان أسهل على فرعون لو لم يكن فى وسط متحضر ان يامر بقتل موسى وهارون فورا ، بل ان هذا الخاطر كان فعلا بذهنه كما تحدثنا الآية الكريمة :

« وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدعُ ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد » .

(غافر - ٢٦)

ولكنه لم يستطع ان يفعل ذلك بمجرد أن طاف فى خاطره لأن طبيعة الحضارة المصرية لم تكن لتسمح به ..

ومما يدل كذلك على الطبيعة المتحضرة للمجتمع المصرى القديم أن السحرة آمنوا بموسى فى ساعة واحدة عندما تبين لهم انه على حق ، وهؤلاء السحرة لم يكونوا مجرد حواة يتلاعبون بالعصى والحبال ويوحون للناظرين انها حية تسعى ، وإنما كانوا فى واقع الأمر علماء وحكماء ، اى خلاصة المثقفين فى المجتمع المصرى ، وهم لم يخشوا بطش فرعون وعذابه ، ولم يترددوا فى اعلان ايمانهم وخذلان فرعون فى مواجهته رغم معرفتهم بما ينتظرهم من عذاب :

« وألقى السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون . قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم أن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين . قالوا إنا الى ربنا منقلبون . وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا . ربنا أفرغ علينا

صبرا وتوفنا مسلمين » .

(الأعـــراف : ١٢٠ ـ ١٢٦)

هذا الموقف من أعظم مواقف الانتصار لحرية الفكر والشجاعة الأدبية فى مواجهة الطغاة ..

ولم يكن السحرة وحدهم أصحاب هذا الموقف الشجاع بل هناك أيضا آسيا امراة فرعون التى مدحها الله تعالى فى القرآن الكريم وضرب بها مثلا :

« وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين » .

(التحـــريم : ١١)

وهناك أيضا ذلك المصرى المجهول الذى نعرفه بوصفه « مؤمن آل فرعون » الذى دافع عن موسى وانتصر لرسالته غير عابىء بما ينتظره من عقاب :

« وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وأن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب . ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا » . .

(غـافـر ٢٨ ـ ٢٩)

ويذكر التراث الاسلامى أيضا ماشطة بنت فرعون التى آمنت بموسى عليه السلام فتمشطها فرعون هى وأولادها بأمشاط من حديد كما يمشط الكتان ، وهى ثابتة على ايمانها بالله تعالى ، ويروى عن

ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كنت ليلة أسرى بى اتت على رائحة طيبة ، فقلت ياجبريل ما هذه الرائحة الطيبة . قال : هذه رائحة ماشطة بنت فرعون وأولادها .

ان تحليل قصة موسى وفرعون فى مختلف مواقعها فى القرآن الكريم يحمل فى ثناياه من الثناء على مصر والمصريين قدر ما يحمل من الادانة والسخط على فرعون وملئه ، بل حتى فرعون موسى مع ما عليه الاجماع من كفّره وعصيانه وجد بين كبار مفكرى المسلمين من يقول بصدق إيمانه لقول فرعون :

« آمنت انه لا إله إلا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين » .

(يونس : ٩٠)

واقصد هنا بالتحديد أكبر علماء الصوفية بلا منازع محيى الدين بن عربى (راجع كتاب « ايمان فرعون » للامام جلال الدين الدوانى - تحقيق ابن الخطيب) .

ولكن أصحاب الحملة الظالمة على مصر وحضارتها لا يذكرون شيئا من هذا كله ، ويركزون فقط على كفر فرعون وجبروته ، وكأن مصر تتحمل وزره الى أبد الآبدين .

★ ★ ★

ماعت .. ربة العدالة ..

عرفت مصر القديمة فكرة العدالة ، وكانت هناك معايير دقيقة لتطبيقها ، وأدبيات كثيرة تشيد بها . كانت هناك آلهة للعدالة المطلقة تسمى « ماعت » هى ربة العدل والحق والصدق ، تصورها النقوش فى هيئة سيدة واقفة أو جالسة مرتكزة على عقبيها ، وتحمل فوق رأسها ريشة طاووس ..

ان « ماعت » كانت تعنى الصدق والشجاعة والعدالة والحق والفضيلة ، كانت بمثابة دستور أخلاقى غير مكتوب يهتدى به الناس فى معاملاتهم ، كانها تقول للانسان : قل الصدق .. إفعل الخير .. التزم جادة الصواب .. الخ

وهذه الفضائل لم تكن تنبع أصلا من الدين ، وإنما نبعت من المجتمع الواقعى وصميم احتياجاته فى وقت كان الدين لايزال يحلق فى السماء بحثا عن الآلهة فى قوى الطبيعة وما وراء الطبيعة . فالدين لأى شعب من الشعوب البدائية ، أو التى لا تزال فى أولى مراحل التطور ، نشا نتيجة حالة الانبهار بمظاهر الطبيعة والخوف من قواها المجهولة وحاجة الانسان الى قوة عليا تحميه من المخاطر الكثيرة التى تتربص به ، كالزلازل والبراكين والوحوش الكاسرة والأمراض الفتاكة . وظل الانسان يبحث عن هذه القوة الخفية فى كل شىء حتى اذا وجدها ، أو اطمأن الى أنه وجدها ، اخذ يقدم لها فروض الطاعة والولاء .

ثم أخذت فكرة الفضيلة (ماعت) وفكرة الدين تتقاربان ، فقد ظهر من الأوفق أن تعتمد الفضيلة على الدين وأن يرتكز الدين على

الفضيلة ، وكان ذلك ايذانا بنزول الآلهة الى الأرض وعنايتهم بشئون البشر ، وبدأ الناس يتلقون أوامرهم الأخلاقية من الآلهة « لا تقتل .. لا تسرق .. لا تكذب .. » وأصبحت (ماعت) هى حلقة الوصل بين الدين والأخلاق ، أو بين السماء والأرض ، وعندما تقدمت الدولة تقدما كبيرا نحو المركزية لم يجد الحكماء أفضل من كلمة (ماعت) للتعبير عن النظام الأخلاقى الاجتماعى الذى تقوم عليه الدولة ، وهو ما يسمى بالنظام العام فى المفهوم الحديث ، وبعد أن كانت (ماعت) فضيلة فردية اصبحت دستورا عاما للفضائل الجماعية التى لا يستقيم بدونها الحكم ، فصارت تعنى النظام الذى هو ضد الفوضى ، والعدل الذى هو ضد الظلم ، والصلاح الذى هو ضد الفساد ، وأصبحت من الألقاب الرسمية للملك بوصفه تجسيدا لفكرة الاله على الأرض ، وربة للقضاة يرتدون شعارها عندما يجلسون للحكم بين الناس ، كما يرفعون الآن فوق رءوسهم الآية الكريمة « واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

وعملية الحساب فى العالم الآخر تتم فى تصور المصرى القديم بأن يوضع قلب الميت فى احدى كفتى الميزان وريشة العدالة (ماعت) فى الكفة الأخرى ، حتى يجرى وزن الحسنات والسيئات بدقة مطلقة بواسطة هذا الميزان البالغ الحساسية .

« فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية ،
وأما من خفت موازينه فأمه هاوية » .

(القارعة . ٦ ـ ٩)

ويكفى هذه الموازين دقة انها مجرد ريشة لا يكاد يكون لها ثقل على الاطلاق ، انها تشبه « مثقال ذرة » الاسلامى الذى يحدد وزن الخير والشر ..

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

(الزلزلة ٧ - ٨)

والواقع أن « ماعت » أخف من مثقال الذرة نفسه ، لأنها ليست شيئا ماديا في الأصل ، وإنما هي « معنى مجرد » جرى تأليهه ، ولذا فإنها تختلف عن الآلهة الأخرى التي ترمز الى قوى مادية مثل مظاهر الطبيعة ولاشك ان تأليه الرمز أو الفكرة يدل على مستوى رفيع من التطور العقلي .

و « ماعت » كانت ايضا غذاء للآلهة ، فالآلهة الأخرى كما نعرف من النصوص الهيروغليفية تحب ان تتغذى على « ماعت » دون غيرها من القرابين اى ان غذاء الآلهة هو الحق والصدق والعدالة ، ولذا نجد في مراسم العبادة ان تقديم « ماعت » الى الآلهة هو الذى يسرهم ويفرح قلوبهم إكثر من اى شيء آخر . يقول احد النصوص « فضيلة (ماعت) الرجل المستقيم خير عند الاله من ثور يقدمه صانع الآثام »

(من التعاليم الموجهة الى مريكارع)

وعلى جدران المعابد نشاهد صور الملك وهو يقدم مختلف القرابين للآلهة ، ولكن صورته في قدس الأقداس بالذات تبينه وهو يقدم للاله نموذجا صغيرا لماعت ، فهذا هو القربان الذى يرضى الاله أكثر من اى قربان آخر مهما كان ثمينا ووفيرا ..

وأرى ان تقديم الملك لرمز « ماعت » الى الاله في قدس الأقداس يعتبر بمثابة « مادة دستورية » اساسية في الحكم . وهي أن الملك ملتزم أمام الاله بالعدالة بين الناس ، ونفهم من ذلك منطقيا ان الملك الظالم الذى لا يلتزم بالعدل بين الرعية يكون مطرودا من قدس الأقداس ، اى مطرودا من رحمة الاله ، وبالتالي ليس له سند في الحكم .

وليس بعد ذلك معيار اكثر تشددا فى ضرورة الالتزام بالعدل .. انه أساس الملك !

★ ★ ★

الحاكم العادل ..

اذا كان فرعون موسى قد دمغ بالكفر والعناد ، وضرب به المثل في الطغيان والاستبداد ، فإن كثيرا من الفراعنة الآخرين عرفوا تاريخيا بالعدل والتواضع والقيام بصالح الأعمال وتعلقت بهم قلوب الرعية فظلت سيرتهم عطرة حتى المراحل الأخيرة من العصور الفرعونية ، ومن هؤلاء مينا موحد القطرين ، وزوسر صاحب الهرم المدرج بسقارة ، وسنفرو مؤسس الأسرة الرابعة ، ومنقرع صاحب الهرم الثالث بالجيزة ، وامنمحات رائد النهضة الزراعية في الدولة الوسطى ، وأحمس طارد الهكسوس .. فهؤلاء وأمثالهم قد ظلوا يذكرون بالخير والثناء ، وظلت تقام لهم الشعائر في المعابد حتى مطلع العصر الروماني .

وبالرغم من الطبيعة « التوتاليتارية » للمجتمع المصرى القديم وتفرد الفرعون بالسلطة الدينية والمدنية ، إلا انه لم يكن بالضرورة حاكما طاغيا ، بل كان الملك يلقب « بالاله الطيب » ويعتبر همزة الوصل بين السماء والأرض او بالتحديد الها سماويا رضى أن ينزل الى الأرض ليحكم بين الناس بالعدل ويحقق الرخاء لشعبه .

ولذلك فإن المصريين يربطون منذ اقدم العصور بين الرخاء والحاكم الصالح ، ويرون أن أزمنة الشدة والشقاء والمجاعة والفقر دليل على ظلم الحاكم وعدم التزامه بالعدل .

والملاحظ أن نغمة « الحاكم العادل » قوية النبرة في الفكر المصرى القديم ، بل كانت هناك مدرسة كاملة من المفكرين الاجتماعيين في عصر ما بعد الثورة الشعبية الذى تلى انهيار الدولة القديمة ترى ان اصلاح الاحوال يتوقف على ظهور الحاكم العادل الذى يعيد الأمور الى نصابها ويقضى على الظلم والفساد .

فنجد الحكيم ايبور يتحدث عن هذا الحاكم الصالح أو المهدى المنتظر ، ويتنبأ بمقدمه ، بل ويحدد الصفات المنشودة فيه ، فيقول :

« انظر اين هو ليسوى بين البشر ، ويبرد لهيب الحريق (الاجتماعى ؟) ويقال عنه انه راعى الانسانية ، ولا يحمل فى قلبه شرا ، وعندما تشرد قطعانه يمضى يومه فى جمعها ؟

« أين هو اليوم ؟ هل هو بطريق الصدفة نائم ، انظر ! ان بأسه لا يرى ! »

اما الحكيم نفرروهو فإنه يتحدث عن الحاكم العادل الذى يبشر به (وهو فى الواقع امنمحات الأول) وعن عصره الذهبى المنتظر ، فيقول :

« ان الذين سيعيشون فى زمنه سوف يبتهجون لأن « ابن الانسان » سيجعل اسمه خالدا أبد الآبدين ، وهؤلاء الذين يتآمرون على الشر ويحيكون المؤامرات سيغلقون افواههم خوفا منه » .

« ان الآسيويين سوف يسقطون بسيفه ، والليبيين سوف يحترقون بلهيبه »

« ان ثعبان الصل على جبينه سوف يخضع المتمردين ».

« ان الفضيلة (ماعت) سوف تعود الى مكانها ، والظلم سوف ينبذ ، فليبتهج أولئك الذين سوف يشاهدون ذلك ، ويخدمون هذا الملك » ..

ويرى برستيد أن مثل هذه التنبؤات بمقدم الراعى الصالح يمكن اعتبارها بمثابة فجر التبشير بالمسيحية ، فبعد أكثر من الف وخمسمائة علم من عصر هؤلاء الحكماء المصريين القدامى بدأ انبياء بنى اسرائيل يبشرون بظهور المسيح الذى ينهضون على يديه من كبوتهم .

وتحمل التعاليم الموجهة من « اخيتى الرابع » (أحد ملوك اهناسيا) الى ابنه مريكارع مسحة واضحة من التواضع والديموقراطية تدل على مدى ارتباط السلطة بالمسئولية الاجتماعية لأول مرة فى تاريخ الفكر السياسى . فالملك لم يعد ذلك الحاكم الجبار المتغطرس ، ولكنه أصبح خادما للشعب وراعيا للقطيع كما كان يامل الحكيم ايبور ..

يقول اخيتى الرابع مريكارع :

« تحل بالفضائل حتى يثبت عرشك على الأرض ، هدىء من روع الباكى .. لا تظلم الأرملة .. لا تجرد أحدا من أملاكه ، ولا تطرد موظفا من عمله ، ولا تغدر بزميل تلقى معك العلم » ..

ويستطرد قائلا :

« لا تكن فظا بل كن رحيم القلب . اجعل هدفك حب الناس لك ، فالناس سوف يشكرون الاله لأنه منحهم اياك وسوف يمتدحون عصرك ، ويدعون لك بالصحة » .

ويذكر الملك ابنه مريكارع بأن مسئولية الحكم ثقيلة ، وانه لا يكفى أن يعتمد على وراثته للعرش ، بل عليه أن يتحلى بالحكمة ، ووسيلته اليها هى القراءة والوقوف على ما خلفه الأجداد من كنوز العلم والثقافة » .

★ ★ ★

دستور الفلاح الفصيح ..

وقصة الفلاح الفصيح مشهورة بما فيه الكفاية ، فلا داع لذكرها بالتفصيل ، ولكنها بالاجمال قصة فلاح بسيط يدعى « خونانوب » تعرض لظلم فادح من شريف يدعى « تحوت ـ نخت » فذهب الى كبير أمناء الملك ويدعى « رينسى بن ميرو » كي يعرض عليه شكايته طالبا أن يقتص له من ظالمه .

يقول خونانوب (من ترجمة الدكتور على حافظ عن النص الفرنسى لجوستاف لوفيفر) :

« هل ابحتم للشريف أن يسلب رجلا ليس له ولى ، وينهب رجلا ليس معه أحد ؟ »

ويرى هذا الفلاح البسيط ـ كما يفهم من كلامه ـ ان سبب الظلم الاجتماعى هو فساد الطبقة الحاكمة وعدم تعفف كبار الموظفين والقضاة ..

« ان كبار الموظفين ياتون الأعمال السيئة وسراة القوم يحيدون عن الطريق السوى والقضاة يرتشون » ..

« ان الذى ينبغى أن ياخذ بتلابيب المسىء لا يفعل شيئا » ..

« والذى ينبغى أن يقضى بالعدل قد أمسى سارقا . والذى ينبغى أن يقضى الحاجات للناس قد أنزل العوز بالناس » ..

« والذى ينبغى أن يستأصل الشرور أصبح يرتكب المظالم »

« والذى ينبغى أن يبين سبيل القانون صار يامر بالسرقة » .

« ان كبار الموظفين لصوص وقطاع طرق ، فمن ذا يبيد المظالم اذا استحل حامى العدالة أن يميل كل الميل ؟ »

ويخاطب خونا نوب كبير الأمناء رينسى بن ميرو قائلا : « فلتكن عصمة للمظلوم ، وليكن شاطئك آمنا ، فإن التماسيح تعبث فى الأرض من حولك »

« وليكن لسانك عادلا فلا تضل سواء السبيل ، ولا تكذب فأنت الميزان ، ولا تخلف الوعد فإنك أنت الاستقامة » ..

ولكن رينسى بن ميرو يشيح بوجهه عنه عملا بأمر الملك كي يفيض الفلاح بكل ما لديه من الفصاحة ، فيأخذ خونانوب يعنفه قائلا :

« انك كصاحب السفينة الذى لا يحمل إلا من يعطيه أجر الركوب »

« انت تعيش بين الناس بغريزة الصقر الذى يفترس ضعاف الطير »

« انك كالطباخ متعته ان يذبح الطير دون أن يؤاخذ بما ذبح منها »

« انك كمدينة لا حاكم لها ، وجماعة لا سيد لها ، وسفينة لا رَبان فيها ، وعصبة لا قائد لها » .

« انك كالحارس الذى يسرق ، والحاكم الذى ينهب ، وامير سليط على عصابات الاجرام » .

ثم يعود خونانوب فيخفف من لهجته ، ويدعو رينسى بن ميرو من جديد الى اقرار العدل ، ويحذره من الظلم قائلا :

« امنع السارق ، وارحم المسكين ، ولا تكن تيارا جارفا على من استجار بك ، اتق دنو الأجل ، واحذر ان يذهب بك حبل الدفة الى عكس ما تريد فإنما تتزن امور البلاد بالعدل . كن رحيما محسنا ونقب عن الحقيقة ، ولا تكن ظالما حتى لا تدور عليك الدوائر ، لا تسلب فقيرا قوته ، ولا تنهب ضعيفا ماله ، فإن مال الفقير حياته ، ومن أخذ مال الفقير فقد خنقه » .

« وقد وليت لتقضى فيما بين الناس من خصام ولتعاقب المجرم » .

ويقول له «ايضا :

« ان العدالة خالدة أبد الدهر ، وهى تنزل القبر مع من يقيمها ،

فإذا توارى فى قبره ووضع فى التراب فلن يمحى ذكره من الأرض ، فسوف يذكره الذاكرون بما فعل من خير ، هذه سنة الله فى أرضه ..

وتنتهى قصة الفلاح الفصيح نهاية سعيدة ، إذ يرفع رينسى بن ميرو صحائف الشكوى التى كان يسجلها كتبته الى الملك الذى يسر بها أكثر من سروره بأى شئ فى مملكته ، ويأمر بإقرار العدل ، وإنزال شر العقاب بالمعتدى رغم انه ينتمى الى طبقة النبلاء .

هذه مقتطفات مختصرة من شكاوى الفلاح الفصيح التى تقع فى ٤٣٠ سطرا ، وتعد اول وأقوى صيحة فى سبيل العدالة الاجتماعية فى مصر القديمة وتاريخ البشرية أجمع . ولاشك ان مثل هذه المعانى النبيلة التى عبرت عنها قصة الفلاح الفصيح كانت جزءا من أفكار الشعب الشائعة فى ذلك العهد السحيق ، وهى فى نفس الوقت تعبر عن درجة عالية من الوعى السياسى والاجتماعى ، بل يمكن اعتبارها اول صيحة فى سبيل الديمقراطية وحقوق الانسان ، وهى تربط فى ذكاء ووضوح بين السلطة والمسئولية ، وتكاد تقول صراحة ان شرط بقاء الحاكم فى الحكم أن يقوم بتنفيذ التزاماته نحو الشعب « فقد وليت لتقضى فيما بين الناس من خصام ولتعاقب المجرم » فإذا لم يفعل الحاكم ذلك فإنه يفقد سند ولايته على الناس .

ان بعض هذه الأفكار التى يسوقها الفلاح الفصيح اشبه بمواد دستورية تحدد واجبات الحاكم ، وهى جديرة بأن يتضمنها أحدث ميثاق بإقرار حقوق الانسان .

فهل يصح بعد ذلك أن يقال أن حضارة مصر القديمة قامت على الظلم والطغيان ؟ !

●●●

حكمـــاء وادى النيــــل

كانت مصر القديمة أرض الحكمة والحكماء ، مثلما هى أرض العلم والعلماء . وقد صارت الحكمة المصرية مضربا للأمثال منذ قديم الزمان ، وحفظ لنا التاريخ أسماء الكثيرين من حكماء وادى النيل الذين عاشوا فى مختلف العصور الفرعونية وتركوا تعاليم ونصائح كانت نبراسا يهتدى به المصريون فى حياتهم ، ويتناقلونها جيلاً بعد جيل ، وقد نجت بعض هذه الأقوال الحكيمة من براثن الزمن ووصلت الينا سالمة بدرجة أو أخرى ، ولكن هناك حكماء آخرين لم تصل الينا سوى أسمائهم مع انهم لايقلون شهرة بل قد يزيدون ومنهم ايمحتب العظيم وزير الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة ، وكان حكيما وطبيبا ومهندسا وفلكيا وكاتبا وكبيرا للكهنة المرتلين ورفع فى أواخر العصور الفرعونية إلى مرتبة اله الطب ، وحرددف ابن الفرعون خوفو بانى الهرم الأكبر ، وكان أميرا عاقلا طيب المعشر مطلعا على تاريخ الأجداد ، وقد هجر فيما يبدو السياسة فى ذلك العصر الملىء بالصراع وتفرغ للحكمة ومصاحبة السحرة والعلماء ، ومنهم أيضا امنحتب بن حابو وزير الفرعون امنحتب الثالث الذى وصلت فى عهده الامبراطورية المصرية إلى قمة الثراء ، وينسب اليه أنه بانى تمثالى ممنون الشهيرين وكان وزيرا وطبيبا ومهندسا ، وبالرغم من أنه كان فردا عاديا ينتمى إلى أسرة متواضعة من « بنهاو » إلا أنه رفع إلى مصاف الآلهة ـ مثل أيمحتب ـ واقيم له معبد فى جبانة طيبة الغربية .

لقمان الحكيم
هل هو مصرى ؟

تحدث القرآن الكريم عن لقمان الحكيم وأورد سورة باسمه هى السورة رقم ٣١ وعدد آياتها ٣٤ آية ، وقد نزلت فى الفترة المكية المتأخرة ، ويختص ذكر لقمان منها بالآيات من ١٣ إلى ١٩ والسورة بوجه عام تتحدث عن الحكمة .

وقد اختلف السلف فى لقمان الحكيم ، هل كان نبيا أو عبدا صالحا على قولين ، والأكثرون على الثانى ، ولايعرف عنه سوى النذر القليل ، وهو يرتبط عادة بطول العمر فكان يلقب بالمعمر ، وزعم الرواة أن عرب الجاهلية كانت لديهم « مجلة لقمان » وهى كتاب يحوى الحكمة والعلم والأمثال ، وقد بالغوا فى حكمته وعلمه ، وقالوا أنه كان « حكيما عالما بعلم الأبدان والأزمان »

وتضارب الاخباريون كثيرا فى شأن لقمان الحكيم الذى ذكره القرآن الكريم ، فقال بعضهم انه ابن أخ ابراهيم أبو الأنبياء ، وقال آخرون بل هو ابن أخت ايوب أو ابن خالته ، وجعله البعض من حمير ، وصيره آخرون قاضيا من قضاة بنى اسرائيل .

ولكن هناك تراثا عريضا يربط بين لقمان الحكيم ومصر ، أو صعيد مصر على وجه التحديد ، قال ابن عباس كان لقمان عبدا نوبيا نجارا ، وقال سعيد بن المسيب : كان لقمان من سوران مصر ذا مشافر إعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة . وقال المسعودى إنه كان نوبيا وكان عبدا صالحا مَن الله عليه بالحكمة .

هذا التراث الذى يربط على نحو ما بين لقمان وصعيد مصر لابد أن يذكرنا بحكيم حقيقى عاش فى عهد الدولة القديمة بمصر وهو بتاح حتب ، ولدينا ثلاث برديات تحوى تعاليم هذا الحكيم ، اثنتان منها كتبتا فى عهد الدولة الوسطى والثالثة كتبت فى عهد الدولة

الحديثة ، ونستطيع ان نجد تشابها واضحا بين تعاليم هذا الحكيم المصرى القديم وعظات لقمان لابنه فى القرآن الكريم .

وقبل البحث عن هذا التشابه اللافت للنظر لابد من كلمة عن فكر لقمان الحكيم كما ورد فى القرآن الكريم .. ان حجر الأساس فى فكر لقمان الحكيم هو عبادة الله بصدق واخلاص ، ان عدم الشرك بالله ومخافته وعبادته راس الفضائل جميعا .

« ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن
يشكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان الله غنى حميد .
وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لاتشرك بالله إن
الشرك لظلم عظيم »

(لقمان : ١٢-١٣)

ان لقمان يعتبر نموذجا للحكمة لأنه كان يعرف أن الحياة الفاضلة فى هذا العالم تنبع من عدم الشرك بالله ، فان بداية كل حكمة هى الامتثال لارادة الله أى علينا أن نفهم العلاقة بيننا وبين الله وأن نعبده حق عبادته ، وعندئذ سوف نكون فضلاء وخيرين ازاء البشرية ابتداء بوالدينا خاصة :

« ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على
وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى
المصير »

(لقمان : ١٤)

فالواجب نحو الله والواجب نحو الوالدين ليسا منفصلين بل انهما واجب واحد ، وإذا ظهر صراع بينهما فان ذلك يرجع إلى خطا ما فى الارادة الانسانية ، وفى هذه الحالة يجب أن نطيع الله لا الانسان ، ومع ذلك لايجب ان نكون قساة او متغطرسين بل نظل رحماء بالوالدين (وبالمجتمع عموما) فنتعايش معهما بالمودة والمعروف على ان يكون عدم إطاعتهما فى الشرك بالله واجبنا الأكبر .

« وان جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فانبئكم بما كنتم تعملون » .

(لقمان : ١٥)

وبعد التوصية بالوالدين ، وبيان طريقة المعاملة الواجبة ازاءهما فى كل الحالات ، ينتقل لقمان الحكيم فيتحدث عن مقدرة الله التى تحيط بكل شىء ..

« يابنى انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السماوات أو فى الأرض يأت بها الله ان الله لطيف خبير » .

(لقمان ١٦)

ثم يذكر لقمان ابنه بواجبه نحو الله والمجتمع :

« يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما اصابك إن ذلك من عزم الأمور » .

(لقمان : ١٧)

ونراه بعد ذلك يعطى ابنه القاعدة الذهبية للفضيلة وحسن السلوك وهو اتباع « الوسط العدل » وهذا هو أساس فلسفة لقمان كما هو أساس فلسفة أرسطو والاسلام .. ان لقمان ينصحه بما معناه : كن معتدلا فى كل شىء . لاتسرع الخطى ولاتكن بطيئا جامدا ، لاتكن ثرثارا ولاعييا صموتا ، لاتكن عالى الصوت أو منخفضه على نحو لايسمع ، ولاتكن متكبرا على الناس بل كن متواضعا بسيطا :

« ولاتصعر خدك للناس ولاتمش فى الأرض مرحا ان الله لايحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » .

(لقمان . ١٨ - ١٩)

وهذا المعنى يتكرر مرة اخرى فى سورة الاسراء :

« ولاتمش فى الأرض مرحاً انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » .

(الاسراء ٣٧)

واعود الآن إلى حكيمنا المصرى القديم بتاح حتب ، فاتساءل : هل هناك وجه للتشابه بين تعاليمه وعظات لقمان الحكيم لابنه كما وردت فى القرآن الكريم ؟

إن أول مظاهر هذا التشابه ان الاثنين يوجهان نصائحهما إلى ابنهما ، إذ يحدثنا بتاح حتب فى مقدمة برديته عن السبب الذى دعاه لوضع هذه التعاليم ، فيذكر انه كان وزيرا للملك اسيسى (ملك تاريخى من ملوك الأسرة الخامسة) وانه شعر بتقدمه فى السن ووقع الشيخوخة عليه فطلب من الملك ان يسمح له بان يعلم ابنه حكمته ، فسمح له الملك بذلك وقال له :

« علمه الحديث
كى يكون مثالا لأبناء العظماء
وتكون الطاعة رائده
ويتحلى بالفطنة
فليس هناك من يتعلم من تلقاء نفسه »

والتشابه الثانى بين الحكيم بتاح حتب ولقمان الحكيم هو الاشتهار بطول العمر ، فالسلف ان اختلفوا كثيرا فى أمر لقمان

الحكيم ولايعرفون عن حياته سوى النذر اليسير إلا انهم يجمعون على شيء واحد هو وصفه بطول العمر ، فكان يلقب « بالمعمر » ومن هنا جاء الخلط بينه وبين لقمان بن عاد الذى تقول الأساطير العربية انه طلب من الله أن يعمر طويلا فأعطاه ماطلب وعاش عمر سبعة نسور . أما بتا حتب فيكفي لنعرف إلى اى سن مرذوله عاش ان نستمع اليه وهو يقول :

« لقد حلت بى الشيخوخة ، وبدا خرفها ، وامتلأت الأعضاء بالألم ، واضحت القوة هزالا ، وصار الفم صامتا ، وغارت العينان ، وصمّت الآذان ، واضحى القلب كثير النسيان ، ان العظام لتتألم ، والأنف لايتنفس . وصارت الحركة مؤلمة . وصار الطيب خبيثاً . وكل طعم قد ولى .. حقا إن تقدم السن يجعل حال المرء سيئا فى كل شيء »

(ترجمة سليم حسن مع بعض التصرف .)

غير ان اهم تشابه يشترك فيه الحكيمان هو تاكيدهما على انتهاج فضيلة التواضع وعدم الصلف والتكبر على الناس

فالقرآن الكريم يقول على لسان لقمان :

« ولاتصعر خدك للناس ولاتمش فى الأرض مرحاً
إن الله لايحب كل مختال فخور » .

ويقول بتا حتب لابنه :

« لاتكونن متكبرا بسبب معرفتك ولاتكونن منتفخ الأوداج لأنك رجل عالم . شاور العاقل والجاهل لأن نهاية العلم لايمكن الوصول اليها ، وليس هناك انسان مسيطر تماما على فنه »

بل تكاد تكون عبارة التشبيه المستخدمة فى تصوير الكبر والغرور واحدة .. « ولاتصعر خدك للناس » و « ولاتكونن منتفخ الأوداج » .

والتوصية بالوالدين فى النص القرآنى يقابلها تاكيد بتاح حتب على اطاعة الوالد

يقول القرآن الكريم « ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير » .

ويحث بتاح حتب على اطاعة الوالد قائلا :

« ان الاستماع مفيد للابن الذى يصغى . أجمل بالابن الذى يصغى عندما يتحدث اليه والده » .

واذا كان نص بتاح حتب لايذكر شيئا عن الأم بالتحديد ، إلا انه يركز كثيرا على الأسرة بصفة عامة ، وعلى حسن معاملة الزوجة بصفة خاصة ، واذا كانت الزوجة فى الفكر المصرى القديم لها هذه المكانة فحسن معاملة الأم ألزم وأوجب .

يقول بتاح حتب :

« إذا أردت أن تكون رجلا ناجحا أسس لنفسك بيتا واتخذ لك زوجة تكون سيدة قلبك . أشبع جوفها ، واستر ظهرها واعلم أن الدهان (العطور) علاج أعضائها . اجعل قلبها مرحا مادمت حيا ، فهى حقل مثمر لسيده » .

وهذا التشبيه الاخير « حقل مثمر لسيده » ورد فى القرآن الكريم بعد ذلك بثلاثين قرنا فى قوله تعالى : « نساؤكم حرث لكم » (البقرة : ٢٢٢) فاذا كان القرآن الكريم يعيد تأكيد بعض نصوص الحكمة المصرية القديمة على هذا النحو فلماذا نستبعد ان يشير الى حكيم مصرى صالح هو بتا حتب تقوم شواهد قوية على أنه دون غيره الأكثر قرباً إلى منطق لقمان الحكيم ؟

إذا صح هذا الاستنتاج نكون بصدد قرينة قرانية عظيمة على مدى الأثر العميق للحكمة المصرية القديمة فى التراث الانسانى اللاحق ، وهى حكمة ارضية أيدتها واكدتها حكمة السماء .

وحكم بتا حتب الذى عاش منذ أكثر من ٤٥ قرنا وله مقبرة معروفة فى جبانة سقارة ، تذهلنا بتنوعها ، ورهافة حسها الاجتماعى ، والتزامها الجاد بقواعد حسن السلوك بالرغم من

نغمتها المحافظة ، فهى ترسم الطريق أمام شاب يراد له أن يكون عضوا صالحا فى أسرته ومجتمعه ، ناجحا فى حياته وعمله ، مطيعا لرؤسائه ووالديه ، مهذبا فى عاداته ، مسيطرا على نزواته ، وأن يكون متواضعا ، محبا للعلم والحكمة ، ثابت الجنان ، عادلا صادقا ، بعيدا عن مواطن الشبهات ، فهذه الصفات الصادقة أعز من الثروة وأبقى منها ، أو كما يقول بتاح حتب : « ان المصائب قد تذهب بالثروة ، ولكن الصدق لايذهب بل يمكث ويبقى » .

★ ★ ★

امنموبى .. نبى مصرى قديم

ومما له دلالة بالغة أن بتاح حتب لايذكر اسم أى اله مصرى قديم من الآلهة المعروفة ، وانما يقتصر على ذكر كلمة « الاله » على نحو مجرد .

ونفس هذه الملاحظة نجدها أيضا فى أقوال حكيم آخر عاش فى عصر الدولة الحديثة هو « امنموبى » وقد وجدت تعاليم امنموبى مكتوبة على بردية محفوظة الآن فى المتحف البريطانى ، والمعتقد أن تاريخ هذه الوثيقة ينحصر فيما بين الأسرة الحادية والعشرين والثانية والعشرين ، وتنقسم هذه الحكم إلى ثلاثين فصلا تتناول شتى علاقات الانسان ونشاطاته .

وبالرغم من أن تعاليم امنموبى ترد فيها أسماء بعض الآلهه المعروفة إلا أن العين الفاحصة ـ على حد قول المرحوم سليم حسن ـ ترى أن « هناك قوة أخرى عظيمة خفية وراء تلك الأسماء الرمزية وهى الله العلى العظيم الذى لا إله غيره . إذ الواقع اننا نجد خلافا لأسماء الآلهة التى جاء ذكرها فى التعاليم مثل « تحوت » و « خنوم » و « رتنوب » وغيرها أن منموبى يذكر بصفة خاصة اسم الله أو الاله ، وهذا يطابق تماما ما جاء فى الدين الاسلامى بتركيزه على الوحدانية مما يدل على ان امنموبى كان لايعتقد فى التعددية وانما لايؤمن إلا باله واحد ، فلم ترد فى أقواله مطلقا كلمة « الآلهة » وإنما فقط « الاله » لذلك ـ كما يقول سليم حسن ـ لا غرابة إذا قلنا أن ديانة امنموبى فى أصلها ديانة توحيد .

وقد لاحظ كثير من علماء الآثار والأديان أن تعاليم امنموبى قد نقلت بنصها تقريبا إلى سفر الأمثال فى العهد القديم ، ويفرد سليم حسن وغيره من العلماء الغربيين ومنهم برستيد فى كتابه « فجر الضمير » صفحات كثيرة للمقارنة والمقابلة بين ما جاء فى هذين

الكتابين تدل على أن تعاليم الحكيم المصرى قد ترجمت لفظا ومعنى إلى السفر العبرى ، علما بأن تعاليم امنموبى هى الأسبق بالتأكيد من الناحية الزمنية .

ولا أعتقد أننا نتجاوز جادة الصواب اذا قلنا أن امنموبى وربما غيره من الحكماء المصريين كانوا أنبياء مرسلين من الله تعالى لهداية الشعب المصرى وغيره من شعوب العالم القديم مصداقا لقوله تعالى « ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما . رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما » .

(النساء : ١٦٤ ـ ١٦٥)

وعلى اية حال فقد كانت تعاليم الحكماء المصريين مثلا يحتذى لأنبياء بنى اسرائيل الذين يعزى اليهم الغربيون وضع أسس الفضائل ومخافة الله ، والحقيقة أن اساتذتهم فى ذلك هم المصريون (راجع ايضا المقارنة بين نشيد اخناتون ومزامير داود) فقد كان المصريون أساتذة لكافة الشعوب القديمة التى أغترفت من حكمتهم وعلمهم وحضارتهم الشىء الكثير .

★ ★ ★

من حكماء وادى النيل

والى جانب من سبقت الاشارة اليهم فقد ابقى الزمن على ذكر كثيرين من الحكماء الآخرين الذين عاشوا فى وادى النيل ، لعل من اشهرهم الحكيم « ايبور » الذى شهد الثورة الاجتماعية الدامية التى أعقبت سقوط الدولة القديمة ، ووصفها وصفا بليغا ، وزميله « نفرروهو » صاحب النبوءات عن تحسن الأحوال وسيادة النظام والعدل ، وأنشودة « عازف القيثار » التى تدعو الناس إلى التمتع بمباهج الحياة قبل أن يحين الأجل المحتوم .

ولدينا من عصر الدولة القديمة الحكيم « كاجيمنى » وقد وصل الينا جزء صغير من تعاليمه محفوظ فى « بردية باريس » وفيها يحث على التواضع والاستقامة والحذر من الكلام غير المسئول ، كما يتحدث عن آداب المائدة وما يجب أن يتحلى به الانسان من التعفف وضبط النفس وهو يؤاكل الآخرين .

وهناك التعاليم الملقنة للملك مريكارع (من ابيه على مايبدو) وقد عاش فى بداية الصحوة التى أعقبت عصر الاضمحلال الأول ، وفيها يعده أبوه لتقلد مهام الحكم فينصحه بأن يكون قوى البأس ، وأن يلتزم بالصدق والعدل بين الرعية ، ويعطيه نصائح وتعاليم دينية واجتماعية وسياسية ثمينة ، وهل هناك اثمن او أعمق من نصيحة تقول : « فضيلة الرجل المستقيم أحب (عند الله من ثور يقدمه صانع الآثام » ؟

ولدينا من الدولة الوسطى وصايا امنمحات الأول لابنه سنوسرت وهى وصايا سياسية فى المحل الأول تصلح كدستور يجب أن يتحلى به الحاكم العادل القوى الشكيمة / وتعاليم خيتى لابنه بيبى التى تحضه على التعليم والثقافة وتبين فضل قراءة الكتب ، وتعاليم سحتب - أب - رع التى يحض فيها على حب مليك البلاد وخدمته

والاخلاص له كوسيلة للنهوض بالبلاد وتحقيق الوحدة المركزية والقضاء على النزعات الانفصالية والتشرذم الاقطاعى .

اما الدولة الحديثة فلدينا منها نصائح « أنى » لابنه وهى تحض على عظيم الفضائل والخلال ، ولاتكاد تجد مجالا إلا وطرقته سواء فى العلاقات الاسرية أو العبادة أو دخول المنازل أو الابتعاد عن مواطن الشبهات بتجنب الخمر والنساء ، أو البر بالوالدين ، أو عدم الاغترار بالقوة والمال أو معاملة الزوجة والرؤساء .

وجميع هذه التعاليم الثمينة مترجمة ومشروحة فى الجزء الأول من كتاب « الأدب المصرى القديم » للمرحوم سليم حسن فليرجع اليها من يشاء الاستزادة .

★ ★ ★

معان باقية

وانه لما يدعو الى الدهشة والاعجاب أن نجد بعض الحكم المصرية القديمة باقية بمعناها وأحيانا بالفاظها فى امثلتنا الشعبية المعاصرة .

فمثلا نجد أون شيشونقى يقول : « ليس هناك من يخدع الناس ولا يكون مخدوعا هو نفسه ، وليس هناك من يسير معوجا ومع ذلك يستمر ويزدهر » اليس ذلك هو نفس المثل الشائع « من حفر حفرة لأخيه وقع فيها » ؟

ويقول آنى « إذا كنت تسير على طريق تصنعه بيديك كل يوم فانك ستصل حتما إلى المكان الذى ترغب فيه » وهذا يشبه تماما قولنا « من سار على الدرب وصل » !

ومن التعاليم الموجهة إلى مريكارع : « ما يقوله الانسان شىء وما يفعله الرب شىء آخر » وهى تعادل تماما قولنا « العبد فى التفكير والرب فى التدبير » .

ويقول آنى « ان دمار الانسان يكمن فى لسانه ، فحاول أن لاتضر نفسك » وكذلك يقول اون شيشونقى « الخرس افضل من اللسان المتسرع » اليس ذلك نفس مانقصده بقولنا « لسانك حصانك إن صنته صانك وإن خنته خانك » ؟

ويقول اون شيشونقى : « حية تاكل .. لاسم فيها » ونحن نقول « اطعم الفم .. تستحى العين » ..

وغير ذلك من المقابلات كثير ان كانت تدل على شىء فعلى أن طبيعة هذا الشعب واحدة .. انها الاستمرارية الحضارية ..

★ ★ ★

من أقوالهم الحكيمة

● **فى الحض على العمل :**

« كن مجتهدا فى كل وقت
افعل اكثر مما هو مطلوب منك
لاتضيع وقتا هباء اذا كان فى امكانك ان تعمل
مكروه ذلك الذى يسىء استخدام وقته
ان العمل ياتى بالثروة
والثروة لاتدوم اذا هجر العمل »
بتاح حتب

● **فى القناعة**

« لاتطمع فيما يملك غيرك
دع اخاك يشاركك ثروتك
ولاتتخطى حدود جارك
ولاتبن منزلا على أرض زراعية
اون شيشونقى
لاتكرس قلبك فى سبيل جمع الثورة

فلا أحد يأمن القضاء والقدر
وكل انسان له اجله المحدود »
امنموبى

● **النهى عن الطمع :**

إذا أردت أن يكون سلوكك حسنا ، وان تحرر نفسك من كل الشرور ، فاحذر أن تشتهى ما يملكه الغير ، انه مرض لا شفاء منه ، يجعل الود مستحيلا ، ويحيل الصديق عدوا ، ويقضى على الثقة بين الأصدقاء ، ويفسد مابين المرء وأمه وأبيه ، وكذلك اخوته من أمه ، ويفرق بين الرجل وزوجته ، انه حزمة تضم كل أنواع الشرور ، وحقيبة ملآى بكل مايستحق الخزى والتأنيب .. ان الذى يشتهى ملك غيره لايكون له قبر »

بتاح حتب

● **ذم الغـــرور :**

« لاتغتر بقوتك بين أقرانك ، وخذ الحذر دائما من خصومك فالانسان لايعرف مايمكن أن يحدث له اذا قرر الله أن يعاقبه »

كاجمينى

« لاتغتر بعلمك
ناقش الجاهل كما تناقش العالم
فالحكمة قد توجد فى أى مكان
حتى بين النساء الجالسات أمام أحجار الطواحين
فلا احد يبلغ الكمال فى فنه

بتاح حتب

● **السيطرة على اللسان**

« فكر كثيرا ولكن احتفظ بفمك مغلقا »

بتاح حتب

« ان دمار الانسان يكمن فى لسانه فحاول الا تضر بنفسك »

آنى

« الخرس أفضل من اللسان المتسرع »

أون شيشونقى

« لا تنطق باية كلمة شريرة امام أى زائر ، فإن كلمة تقال يوما وانت تثرثر قد تدمر منزلك » .

آنى

« ان قلب الانسان يشبه مخزنا للغلال مليئا بالاجابات من كل نوع ، اختر الردود الطيبة منها وتحدث بها على لسانك ، واحتفظ بالردود السيئة فى داخلك » .

آنى

« كن ماهرا فى الحديث
من أجل ان تفوز وتنتصر
إن قوة الانسان تكمن فى لسانه
والحديث اقوى من اى قتال »

من تعاليم مريكارع

● فى النصيحة : .

« لاتنصح الأحمق حتى لايكرهك
ولاتنصح من لايستمع اليك
لاتستشر الرجل الكبير فى شان صغير
ولاتستشر الرجل الصغير فى شان كبير
ولاتستهزىء باية نصيحة » .

أون شيشونقى

★ ★ ★

دستور العلاقات العامة

هذه نماذج قليلة متفرقة من حكمة قدماء المصريين ، تدل على العمق والصفاء النفسى والتزام جادة الصواب . والحقيقة ان الحكمة المصرية القديمة لم تكن تستهدف تحقيق النجاح الدنيوى بأى ثمن ، بل انها تحذر على وجه التحديد من ذلك النجاح الزائف . انها على نقيض تام من المبدأ الميكيافيللى المعروف « الغاية تبرر الوسيلة » فهى تهتم أساس بنقاء الوسائل ، وعندئذ فإن الغايات سوف تهتم بنفسها .

الحكمة المصرية تحض على الفضائل وكريم الأخلاق والخلال ، وتدعو الى السيطرة على نزعات النفس والتحلى بالصفات الحسنة . ان هدفها صياغة الرجل الصادق المستقيم ، وهى تنظر الى الانسان فى حده الأدنى ، أى باعتباره انسانا بسيطا مجردا دون أدنى اعتبار لمكانته الاجتماعية أو درجة ثرائه أو جنسه ذكرا أم أنثى . فالجميع سواء أمام القانون الأخلاقى ولا فضل لأحد على آخر إلا بالتقوى والاستقامة وحسن الخلق ، وهى من هذه الناحية تقترب كثيرا من الاسلام .

ولم تكن الحكمة المصرية القديمة ترفا اجتماعيا ، أو حديث صالونات ، ولم يكن الحكماء المصريون يعيشون فى برج عاجى بمعزل عن الشعب ، وانما كانوا بمثابة ضمير للأمة ، وكانت أقوالهم تنتشر بين الناس وتصبح دستورا للعلاقات الانسانية والسلوك العام من يخرج عليه يفقد المصداقية والاحترام .

ومما يدل على مدى انتشار أقوال الحكماء بين الناس ان معظم نصوص هذه الحكمة وردت الينا فى صورة تمارين يقوم بها التلاميذ للتدريب على البلاغة أو قواعد اللغة أو تحسين الخط . ومعنى ذلك أن النشء كان يتمرس بها ويتشرب رحيقها منذ نعومة أظافره ويشب بالتالى جيلا قويا ، صادقا ، متين الأخلاق .

وفى اعتقادى أن أقوال الحكماء المصريين القدامى لم تكن تقل تأثيرا فى نفوس الناس عن الدين ، بل لعلها كانت أعمق تأثيرا وأوسع انتشارا من نظريات الكهنة وخزعبلاتهم وتصوراتهم المعقدة ، فالأسرار الدينية المقدسة كانت حكرا على طبقة الكهنة الذين يحتفظون بسجلاتهم محبوسة فى المعابد ، أما أقوال الحكماء فكانت تنتشر بين الناس على اختلاف طبقاتهم ودرجاتهم ومستواهم الفكرى ، وتخلق بالتالى ضميرا اجتماعيا أو رأيا عاما هو فيما أعتقد سر خلود مصر وبقاء حضارتها هذه الآلاف الكثيرة من السنين .

ولاتزال رواسب هذه الحكمة المصرية القديمة باقية فينا نحن المصريين المحدثين ..



تأمل .. لاشىء يفوق قدر الكتب !

فى المتحف البريطانى يوجد حجر أثرى مستدير له قصة مثيرة حكاها العالم الشهير جيمس برستيد فى كتابه القيم « فجر الضمير » ..

هذا الحجر يحمل نقوشا هيروغليفية ممحاة جزئيا خاصة فى منطقة الوسط ، والسبب فى ذلك أن الفلاحين المصريين المحدثين كانوا يستخدمونه كحجر طاحونة لطحن الغلال ، ولذا فقد ثقبوه عند المركز وثبتوا فوقه حجرا مستديرا علويا ، وظلوا ردحا من الزمن يطحنون بينهما الحبوب حتى ازالوا منطقة القلب من نقوشه الهيروغليفية دون أن يفطنوا بالطبع الى جسامة الخسارة التى احدثوها ..

وعلى اية حال ، فقد انقذ علماء الآثار الحجر فى نهاية الأمر ونقلوه إلى المتحف البريطانى ، حيث عكف على دراسة نصوصه لفيف من افضل علماء الآثار .

عرف العلماء شيئا عن أصل هذا الحجر من الكتابة الهيروغليفية الباقية على قمته ، إذ نجد اسم الفرعون الأثيوبى « شباكا » الذى حكم مصر فى القرن الثامن قبل الميلاد ، وتحت هذا الاسم نقرأ أن « جلالته (يعنى نفسه) أمر باعادة نقل هذه الكتابة من بيت أبيه بتاح ، لأن جلالته وجد أن هذا العمل الذى تركه الاسلاف قد نخرته الديدان وأصبح غير قابل للقراءة من البداية إلى النهاية فأمر جلالته باعادة كتابته من جديد (على هذا الحجر) حتى يكون أجمل مما كان عليه من قبل » .

نفهم من ذلك أنه فى القرن الثامن قبل الميلاد اهتم ذلك الملك الأثيوبى التقى بحفظ عمل فكرى قديم « تركه الاسلاف » وهو بلا شك كان مكتوبا على وثيقة من ورق البردى وإلا ماكان قد « أكلته

الديدان » ومن اجل ان يضمن شباكا ان يعيش هذا العمل إلى الأبد فقد أمر بنقله إلى الحجر ، ولم يكن شباكا بالطبع يتوقع أن يستخدم هذا الحجر الصلد كطاحونة على أيدى أحفاد مصر بعد ذلك بعشرات القرون ، وهو أمر لم يكن ارحم كثيرا من الديدان ..

ولو كانت عملية الطحن قد استمرت عدة سنوات اخرى لمسحت من الوجود نصا ذا اهمية فريدة في تاريخ الفكر الانسانى ، او على حد تعبير برستيد « اقدم دراما في العالم واول مناقشة فلسفية معروفة في التاريخ » .

لقد تبين أن هذا النص منقول عن نص آخر اقدم منه بالفين وخمسمائة عام ! وهى حقيقة ربما لم يكن يعلمها كتبة « شباكا » انفسهم الذين كلفوا بنقل النص القديم كما هو ، فرسموا كلماته رسما دون أن يدركوا معناها بوضوح لأن لغتها قديمة بالنسبة لهم ، تماما كما لايفهم ناسخ عربى حديث نصا جاهليا يقوم بنقله ، ولكن علماء الآثار المحدثين عرفوا الحقيقة استنادا إلى قواعد اللغة التى كتب بها النص ، وهى قواعد ترجع إلى مطلع العصر التاريخى ، أو بالتحديد إلى الأسرة الأولى التى اسسها مينا موحد القطرين ، اى حوالى عام ٣٢٠٠ ق . م . والفكر الذى يعبر عنه النص كان موجودا قبل ذلك بالتأكيد ، اى انه يرجع إلى عصر « الاتحاد الأول » أو ماقبل الأسرات ، مما يجعل هذه الوثيقة من حيث محتواها « اقدم وثيقة فكرية في تاريخ الجنس البشرى تناهت الينا في شكل مكتوب » على حد تعبير برستيد أيضا .

فماذا يقول هذا النص العتيق الفريد ؟

ان هذا النص عبارة عن محاورة فلسفية او « دراما » يلعب فيها الاله بتاح اله منف دور رع اله الشمس كاله أعلى لمصر كلها مما يدل على تفوق منف وسيادتها نتيجة فيما يبدو لانتصار مينا وانتقاله من بلدته الإقليمية « ثنى » إلى منف الذى أعاد انشاءها وجعلها عاصمة

لكل البلاد ، ولكن صياغة هذه « الدراما المنفية » وفلسفتها تدلان على أنها من وضع كهنة رع فى عين شمس « أون » وهذا ما يفسر ظهور بتاح فى دور رع ، ويدل فى نفس الوقت على امتزاج القوة السياسية التى يمثلها بتاح بالقوة الدينية التى يمثلها رع .

ويشير النص إلى تحول تام وخطير فى طبيعة اله الشمس ، إذ نراه هنا ينزل من عليائه ليكون حكما فى شئون البشر ، فهو يحكم الحياة البشرية طبقا للتمييز بين الخير والشر ، فالذى يفعل الخير يثيبه الاله بالحياة ، والذى يفعل الشر يكون جزاؤه الموت . يقول برستيد انه لأمر يدعو للدهشة الشديدة أن نجد مثل هذه الأفكار وقد أشرقت فى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد .

هذه هى مصر التى عرفت الفضائل ومعايير السلوك الانسانى منذ ستة آلاف عام ، أو هذا هو « فجر الضمير » .

ولاتتوقف مفاجآت النص عند هذا الحد ، إذ بالرغم مما أصابه من تلف وتشويه خاصة فى منطقة الوسط ، فقد تبين أنه يتحدث عن عملية خلق الكون ، وكيف أنها حدثت بكلمة من بتاح الذى هو « قلب » و « لسان » كل الآلهة ، إذ أن بتاح نطق باسماء كل الأشياء .. فوجدت من العدم . واللسان ينطق بما فى القلب .

وهكذا تكون كل الموجودات قد جاءت نتيجة للكلمة المقدسة التى نطقها لسان بتاح تعبيرا عن الفكر الذى فى قلبه .

وهذه فكرة خطيرة عظيمة الاهمية فى تاريخ الفكر الدينى كله ، بل لعلها الفكرة الأساسية الأولى التى قامت عليها الأديان ، فهنا نتعرف لأول مرة على نظرية « الكلمة الخالقة » التى جاءت بها الأديان السماوية فيما بعد ، ففى العهد القديم « فى البدء كان الكلمة » وفى القرآن الكريم « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون »

(يس . ٨٢)

انها فكرة هائلة دون ريب ، وان تتكشف للادراك البشرى فى ذلك الزمن الموغل فى القدم ، خلال الألف الرابع قبل الميلاد ، فانما تدل على مدى النضج الذى بلغه الفكر الدينى المصرى منذ بداية التاريخ ، بل فيما قبل التاريخ . ولعل هذه الأهمية القصوى للنص هى ما ابقته حيا على طول العصور الفرعونية إلى ان أمر الملك « شباكا » بنقله على الحجر خوفا عليه من الانقراض .

ثم جاء المصريون المحدثون فأخذوا هذا الحجر الثمين وصنعوا منه رحاية .. وهو نفس ما فعلناه عموما بتاريخنا وحضارتنا قبل مرحلة الوعى الحديث !

مكانة الكتاب والمؤلفين

ليس هدفى من ايراد قصة هذا الحجر الفريد الاستطراد فى الحديث عن نصه الموغل فى القدم وفحواه الفكرى والدينى ، وانما التدليل فقط على مدى الاحترام الذى كان ينظر به القدماء الى الكتابات والمؤلفات التى توارثوها عن اجدادهم ، فقد عاشت هذه « الدراما المنفية » - التى ربما كانت اول مؤلف مكتوب فى تاريخ البشر - من منتصف الالف الرابع قبل الميلاد حتى الألف الأول ق . م . فى هيئة مرثيات ربما نسخت مرارا وتكرارا إلى ان ادرك « شباكا » آخر هذه البرديات وقد كاد يصيبها التلف ، فامر بنقلها على الحجر ..

وقد وصلت الينا كثير من الكتابات المصرية القديمة سواء فى الدين او الحكمة او القصص او الاشعار او الطب او الرياضة بنفس الطريقة فكانت تنسخ مرارا وتكرارا عبر القرون السحيقة ، وربما تصبح تمارين يتمرن الطلبة على كتابتها . وهكذا كانت الثقافة المصرية محفوظة دائما فى السجلات ، ولم تكن تنتقل فحسب شفاهة شأن ما يحدث فى معظم الحضارات القديمة ، فالثقافة المصرية كانت ثقافة مكتوبة ، وكان ينظر اليها باجل الاحترام ، وليس هذا بغريب

على امة اخترعت الكتابة ونقلت البشرية الى مرحلة التاريخ المكتوب .

ولدينا بردية من عهد الرعامسة تعبر عن هذا الاجلال الرفيع الذى كان المصريون القدماء ينظرون به الى الكتب والمؤلفات . وتلك المكانة العالية التى كان يتمتع به المؤلفون والحكماء ، محورها أن الكتب اكثر خلودا من الأهرامات . وانها تضمن لأصحابها الذكر الحسن على مدى الدهر .

تقول البردية عن هؤلاء المؤلفين الحكماء (ترجمة سليم حسن مع بعض التصرف اللفظى) .

انهم لم يقيموا لأنفسهم أهراما من نحاس
ولا شواهد قبور من حديد
بل جعلوا من كتب الحكمة ارثهم الوحيد
كانت اضمامات البردى كاهنهم المرتل
والواح الكتابة ابناءهم البررة
وكتب التعاليم أهراماتهم
والقلم ابنهم
والصفحات زوجاتهم

وتصف البردية كيف أن بعض الكتاب قد ماتوا منذ أمد طويل ، وتحطمت قبورهم ومحيت من الوجود ، ومع ذلك فلن ذكرهم باق ، وشهرتهم خالدة :

ان مقابرهم قد آلت إلى الدمار :
وشواهد قبورهم علتها الأقذار
لقد تبدد كهنتها وانقرضوا
ولكن أسماءهم ظلت باقية
بسبب المؤلفات التى وضعوها
وبقدر ماهى عليه من الاتقان

يكتب لواضعيها الخلود والعرفان

ثم تمضى البردية فتقارن بين الكتب والوسائل المادية الأخرى لتخليد الذكر ، وتنتهى المقارنة لصالح المؤلفات :

ان كتاباً واحداً
لأعظم فائدة من لوحة فى قبر
ومن جدران مقبرة حصينة
فالكتب هى مقاصير وأهرام
فى قلوب الناس

هذه هى نظرة الحضارة المصرية إلى الكتب ، وهى الحضارة التى تقدر الاهرامات والمقابر والمقاصير إلى اقصى حد ، ولكن هاهى تضع الكتب والمؤلفات فوق ذلك جميعا ، وهذا تقدير لايدانيه أى تقدير

الرجل يموت
وتصبح جثته جيفة قذرة
ويصير كل ذريته ترابا
ولكن الكتب (التى يؤلفها) تجعله فى كل فم
ان كتابا واحدا
لأكثر نفعا من بيت متين الأساس
ومن قبر فى الغرب
وأجمل من قصر منيف
ومن نصب فى معبد

وتمضى البردية فتذكر أسماء بعض الحكماء القدامى الذين لم يعد هناك من يدانيهم ، ومنهم حرددف ، وايمحتب ، ونفرى ، وخيتى ، وبتاح أم تحوتى ، وخع خبر رع سنب ، وبتاح حتب ، وكارس ، وتقول عنهم :

انهم قد اختفوا
ولكن سحرهم شمل كل الناس

الذين قرأوا تعاليمهم
لقد ذهبوا ومحى رسمهم
ولكن كتاباتهم جعلتهم مذكورين

ومن النادر أن نقرأ مثل هذا التوقير للكلمة المكتوبة فى أدبيات أية امة من الأمم قديما أو حديثا .. انها حضارة الثقافة ، وثقافة الحضارة

تحوت .. اله الثقافة

لقد كانت الثقافة بكل فروعها النظرية والعملية فى الأساس الذى قامت عليه الحضارة المصرية برمتها ، فهذه الحضارة لم تقم على القوة الباطشة ، ولم تقم على الثراء العريض ، ولم تقم على النشاط التجارى والبحرى ، شأن معظم الحضارات الأخرى ، وانما قامت على أساس واحد هو الثقافة .

لذلك ليس غريبا أن يتمتع « تحوت » اله المعرفة والثقافة بمكانة فريدة وجليلة فى « البانيثون » المصرى . ففى بعض نصوص الأهرام يصور تحوت أحيانا باعتباره أكبر أبناء رع ، وأحيانا ابن جب (الأرض) ونوث (السماء) وأخ لايزيس وست ونفتيس .

ولكن المعتاد عنه والشائع انه لايمت بصلة الى الأسرة الأوزيرية وانه كان فقط وزيرا لأوزيريس وكاتب مملكته المقدسة .

وتحوت هو رب الحكمة والمعرفة الكاملة ، وهو مخترع كل العلوم والفنون والآداب والرياضة وعلم المساحة والهندسة والفلك والتنبؤ والسحر والطب والجراحة والموسيقى الوترية والهوائية والرسم والقصص والشعر . وفوق ذلك هو مخترع فن الكتابة الذى يدونه ماكان للبشرية أن تتذكر تعاليمه وتحتفظ باكتشافاته ومخترعاته ، ولذلك أسمى « سيد الكلمات المقدسة » وهو رب البيان وأول السحرة ، ويطلق عليه لقب « الاكبر » وتلاميذه يزعمون أن لديهم

الكتب التى وضعها فى السحر وانهم حلوها وفكوا رموزها ولذا فانهم تعلموا منه « الصيغ التى تسيطر على قوى الطبيعة وتخضع كل شىء حتى الآلهة لارادتهم » وبسبب هذه القوة الخارقة التى ينسبها اليه أتباعه جاء اسمه « تحوت » ومعناها بالمصرية القديم « العظيم جدا ثلاث مرات » وترجمة الأغريق الى « هرمس ترسمجطس » أى هرمس المثلث العظمة .

وتحوت هو الذى يزن قلب الميت فى محكمة أوزريس ويعلن بصوته الجهير « غير مذنب » ويسجل ذلك فى الواحه وهو الذى يتمتع بثقة كل الآلهة لذلك اختاروه حكما بينهم وهو الذى حكم لصالح حورس ضد ست فى الأسطورة الخالدة

وتحوت يجلس مكان رع فى السماء عندما يغيب رع لانارة المكرمين فى العالم السفلى ، ولذا فان تحوت أيضا هو القمر واسمه « إياح تى حوتى » وهو يعبر السماء فى سفينته الليلية ، وفى كل شهر يتعرض لهجمات الشياطين (أعداء النور والمعرفة) الذين يلتهمون أطرافه حتى يصير محاقا ثم يولد هلالا ويصبح بدرا ، وهكذا فان تحوت هو الذى يقيس الزمن وهو الذى يقسمه إلى شهور وسنوات وفصول ، وهو رب التاريخ ، والحفيظ على السجلات المقدسة ، والذى يسجل بدقة تعاقب الملوك ، وهو أيضا رسول الآلهة وكاتبهم وسكرتيرهم ، فنقرأ على الآثار عبارة تتكرر كثيرا : « تكلم رع . كتب تحوت » .

وانظر إلى هذه المقابلة البديعة بين وظيفة تحوت كالة للمعرفة ووظيفته كاله القمر ، تجد أن الوظيفتين واحدة فى الواقع ، وهى نشر النور .

هكذا تصوّر أجدادنا نور المعرفة .. أنه يفعل فى العقول ما يفعله القمر فى ظلمة الليل البهيم . فجعلوا اله المعرفة واله القمر واحدا !

★ ★ ★

ليتنى أجعلك تحب الكتب
أكثر مما تحب أمك

خصصت مجلة « هيستوريا » الفرنسية التاريخية عددا خاصة عن التعليم والثقافة ، كان من أبرز فصوله مقال بعنوان « التلميذ المصرى القديم أول تلميذ فى العالم » بقلم العالمة الأثرية الفرنسية الشهيرة كريستين نوبلكور . قالت فيه إن مصر هى التى اخترعت الكتابة والحساب والمدارس والتلمذة ، ومن يدرى لو لم تكن مصر قد فعلت ذلك لربما اتخذ تاريخ البشرية مجرى آخر .

لقد عرفت مصر تقريبا كافة مراحل التعليم المعروفة حاليا ابتداء من الكتاتيب إلى الدراسات العليا .

عرفت الكتاتيب فى القرى وأحياء المدن الشعبية لتعليم مبادىء القراءة والكتابة والحساب ، والمدارس الابتدائية الصغيرة « عت سار » والمدارس الملحقة بدواوين الحكومة لتخريج الكتبة والموظفين ، ودور الحياة أو المدارس الملحقة بالمعابد (برد عنخ) لتخريج الأطباء والكهنة ، ومدارس الأمراء فى القصور ، والجامعات فى أون (عين شمس) ومنف والأشمونين وطيبه . كما عرفت نظام المربين أو المعلمين الخصوصيين . وكانت الاناث يتعلمن أيضا كالذكور

وكان من أحب الألقاب لدى المصرى القديم أن يلقب « بالكاتب » ومن أكبر أمنياته أن يصنع لنفسه تمثالا يضعه فى مقبرته يمثله فى هيئة الكاتب المتربع وهو يكتب أو يقرأ بردية فى حجره ..

وكانوا يتصورون أن الاله أوزيريس رب العالم الآخر يغضب أشد الغضب اذا وفد على محكمته جاهل ، ويقول لمن جاء به « كيف يأتى إلىّ برجل جاهل لايعرف كيف يعد أصابعه ؟ »

وحتى رمسيس الثانى سيد العالم والمتحكم فى الرقاب نراه فى بعض صوره فى هيئة الكاتب يحمل لوحة الكتابة بمحابرها و اقلامها

لذا كان الآباء يحرصون أشد الحرص على تعليم ابنائهم وتحبيب العلم إلى قلوبهم ، وهناك بردية شهيرة تعرف باسم « تعاليم خيتى بن دواوف لابنه بيبى » تحوى النصائح التى يوصى بها هذا الحكيم ابنه بيبى وهما فى طريقهما على سفينة بالنهر لالحاق الابن بمدرسة لأولاد الحكام .

يقول خيتى لابنه (ترجمة سليم حسن مع بعض التصرف)

« عليك أن توجه قلبك لقراءة الكتب

تأمل ! لاشىء يفوق قدر الكتب

ليتنى أجعلك تحب الكتب أكثر من أمك

ليت فى مقدورى أن أظهر جمالها أمام عينيك

ان الكتابة أعظم من أية حرفة »

ثم يشرع خيتى فى وصف الحرف الأخرى وما بها من مشقة ومهانة مبينا فضل العلم عليها جميعا . فالنحّاس « يقوم بعمله عند فوهة الأتون وأصابعه كجلد التمساح ورائحته أكثر كرها من البيض والسمك » والخراط « ينال ممن الاعياء أكثر مما ينال ممن يفلح الأرض » والبناء « يعمل فى الأحجار الصلبة وعندما ينتهى من عمله تكون ذراعاه قد تكسرتا ويعود الى بيته مضنى » والحلاق « يحلق متأخرا حتى الغروب ويتجول من شارع إلى شارع باحثا عن زبون كالنحلة التى تكد لتأكل » والبائع المتجول « يسيح حتى الدلتا ليبيع سلعته والبعوض يلدغه » وضارب الطوب « يقضى حياته بين الماشية وملابسه تكون خشنة وهو يشتغل بيديه وقدميه » والبناء « ملابسه قذرة وهو أتعس مما يمكن أن يتصور أحد فهو كقطعة حجر » والبستانى « يحمل أثقالا وذراعاه ورقبته تتألم تحتها والفلاح « حسابه مستمر إلى الأبد (أى مطالب دائما بتسديد

ديونه) وصوته أعلى من الطائر أبو (أى دائم التشكوى)والنساج (داخل مصنعه) اتعس من حال المرأة (اى لايترك مقعده) فركبتاه دائما فى بطنه ولايمكنه أن يستنشق الهواء » .

ويستمر خيتى فى هذا التصوير الكاريكاتيرى البديع يصف متاعب مختلف المهن والحرف الأخرى فيتحدث عن صانع السهام ، وناقل البريد ، والاسكافى ، والغسال ، وصائد العصافير ، وصائد السمك ، وغيرهم . ثم ينتقل مرة أخرى إلى اطراء حرفة الكتابة وتبيان فضلها ومحاسنها ، فيقول :

ان صاحبها هو الذى يصدر الأوامر
ان الكاتب هو رئيس نفسه (ليس له رئيس يأمره)
اذا عرف الانسان الكتب فانها تفيده
ان يوما فى المدرسة مفيد لك
وما تعلمه فيه يبقى مثل الجبال

أما اذا تقاعس الابن ولم يبد نجابة فى التعلم فان والده يعنفه أشد التعنيف ، وفى رسالة من أب يوبخ ابنه على اهماله فى الدرس والتحصيل ، يقول :

« ان قلبى قد سئم اعطاءك دروسا (أكثر مما اعطيتك) ان مثلك عندى كحمار قد ضرب ولكنه عنيد (أى لا يؤثر فيه الضرب ولايعلمه شيئا) انك كعبد أسود يزمجر وقد أحضر مع الجزية . ان الحداة توضع فى العش وجناحاها يوثقان (أى سوف أحبسك وأوثقك لأنك لاتزيد عن حداة) وأنى لجاعلك حتما تلعب دور الرجال أيها الولد الردىء . أرجو أن تفطن الى ذلك »

ثم يمضى الأب فيعاير ابنه بأن الحيوانات نفسها تتعلم ، وهو لايفيد فيه التعليم ، فيقول :

« ان الكابرى (حيوان أثيوبى) يدرب على الرقص ، والخيل تروض ، والحداة تستأنس ، والصقر يشد جناحاه (أى يدرب على الصيد) .. فثابر فى طلب العلم ولاتملن الكتابة »

تقدير المدرس

وإذا كانت هذه هى أهمية التعليم لدى المصرى القديم وإلى هذا الحد يحرض عليه ، فلا غرابة أن يتمتع المدرس فى المجتمع باحترام وحب بالغين . وقد أورد سليم حسن فى كتابه عن « الأدب المصرى القديم » نماذج من الرسائل التى يبعث بها أشخاص إلى معلميهم القدامى تفيض حبا وتقديرا وأمنيات عذبة .

فنجد أحدهم يقول فى رسالة إلى معلمه :

« لقد ربيتنى صغيرا حينما كنت معك ، وضربت ظهرى ، لذلك دخل تعليمك أذنى .. ليتنى أستطيع أن أقيم لك قصرا جديدا على أرض مدينتك مفروشا بالأشجار على كل جانب من جوانبه ، وحظائره تزخر بالماشية ، ومخازنه مفعمة بالقمح والشعير والفول والعدس والكتان والخضر والتفاح الذى يكال بالسلال » .

وفى رسالة أخرى إلى مدرس يقول مرسلها :

« ليت آمون يمنحك السرور ، ويهبك عمرا طويلا حسنا حتى تحيا حياة سعيدة ، وتبلغ العلا ، وتكون فى صحة دائمة ، أعضاؤك نامية ، وعيناك تبصران على بعد ويمضى الراسل فى تمنياته لمدرسه ، فيقول :

« (أتمنى) أن ترتدى التيل الجميل ، وتركب الجياد الأصيلة ، وبيدك سوط ذهبى ، والسرج من صنع سوريا ، والعبيد تجرى أمامك وتنال كل ماتريد (أتمنى) أن تنزل إلى سفينتك المصنوعة من خشب الأرز ، والمجهزة بالمجاديف ، وتصل إلى قصرك الجميل الذى بنيته لنفسك »

وهذه الأمنيات تذكرنا بالحديث النبوى الشريف « من علمنى حرفاً صرت له عبداً » ..

وكانت مهمة التربية هى التوجيه والترغيب لا القصر والارغام

يقول معلم لتلميذه « لقد جعلت قلبك يعرف الصواب ، ولك أن تفعل بعد ذلك ماتراه صوابا فى نظرك » .

هذه هي مصر العظيمة ، وهذا هو تقديرها للعلم والتعليم ، والثقافة والفنون ، والكتابة والكتاب ، فليس صدفة إذن ما بلغته من رفعة وعلو ، وما صنعته من منجزات ومعجزات تحار فيها الألباب ، وماعاشته من آلاف مؤلفة من السنين ، وكانت فى معظم مراحل تاريخها منارة للعلم والعرفان تفيض بنورها على كل انحاء العالم القديم ، فيقصد اليها الطلبة من شتى الأنحاء يطلبون فيها العلم والمعرفة فلا تبخل على أحد بما يريد . وفى اواخر عصورها الفرعونية بالذات كان يتوافد عليها الدارسون الأغريق يعبون من علومها عبا ، ومنهم فلاسفة كبار من امثال صولون وفيثاغورس وانكسا جوراس تتلمذوا على ايدى الكهنة المصريين ، ثم عادوا الى بلادهم اليونانية ونشروا هذه العلوم على انها من بنات افكارهم وقدح قرائحهم ، حتى لنجد المؤرخ الأغريقى هيردوت – فى نوبة غضب على مواطنيه – يحذرهم بأن فى امكانه ان يفضحهم واحدا واحدا ويبين ماسرقوه من علوم المصريين !

لقد تشربت التربة المصرية حب الثقافة والتعليم ، وظلت تحتفظ بالرواسب الحضارية التى تشبعت بها عبر العصور ، وهذا هو سر عطاء مصر الثقافى المستمر حتى فى عصور الضعف والانحطاط وقد كان الريف المصرى بالذات – بالرغم من فقره وتخلفه وقسوة الحياة فيه – هو المستودع الهائل الذى يحتفظ بهذه الرواسب مما جعل لدى الفلاحين المصريين استعدادا ثقافيا عاليا ، وانه لمما يلفت النظر ان معظم علمائنا ومثقفينا وفنانينا نشأوا فى الريف أو ينتمون إلى اصول ريفية مباشرة . وان الشاب القروى – منذ ايام رفاعة الطهطاوى حتى الآن – يمكنه ان يلتحق بأرقى معاهد العلم فى عواصم اوروبا وامريكا ويتفوق على اقرانه من ابناء الحضارة الغربية فى شتى فروع العلوم والفنون والآداب .

ومصر الآن هى العاصمة الثقافية لكل العالم العربى بلا منازع ، ولن ينافسها فى ذلك أى مكابر مهما أوتى من المال او شهوة الزعامة ، فلا يزال المدرس المصرى هو المدرس الأول فى العالم العربى ، والفنان المصرى هو الأكثر ذيوعا وانتشارا ، والثقافة المصرية هى الأكثر رسوخا واقتدارا ، إلى جانب ذلك الجيش العرم من الأطباء والمهندسين والقانونيين والاداريين والصناع الذين يساهمون فى التقدم العربى العام ..

فلنحرص على الثقافة ، فانها رأسمال مصر الحقيقى ، ورصيد مصر الباقى ، اذا فنيت كل الأرصدة والرساميل ..



عندما اعتلى الشعب المسرح

تعرضت مصر فى أواخر أيام الأسرة السادسة لثورة شعبية ساحقة ما حقة احتجاجا على سوء الأحوال ، وتراكم الأثقال على هذا الشعب الصبور الذى بنى على أكتافه العارية عشرات الأهرام الشامخة فى الدولة القديمة دون أن يئن أو يمن ، أو يأخذ جزاء أو شكورا ، ولعله كان راضيا بخدمة « الاله الطيب » والمساهمة فى صرح خلوده اعتقادا منه بأن هذا « الاله » أو الملك رضى أن ينزل من عليائه بين الآلهة ليعيش بين رعاياه البشر يكفل لهم الحماية ويحقق الخير ، غير أنه مع سوء الأحوال فى أواخر الدولة القديمة وتضاؤل سلطات الملك وظهور قوة الأمراء الاقطاعيين وانتشار المظالم من كل نوع وسوء الحالة الاقتصادية انهارت الأسس المتينة التى قامت عليها الدولة المصرية ، وكان لانهيارها هذا الوقع الصاعق الذى تجلى فى الثورة الشعبية التى حدثت فى أواخر عهد الملك المسن بيبى الثانى ثم امتدت على نحو متناثر ومتقطع طول ما يعرف بعصر الانقطاع الأول الذى استمر زهاء ١٥٠ عاما حتى قامت الأسرة الحادية عشرة التى اعادت الأمور الى نصابها .

ففى عهد بيبى الثانى الذى امتد به الأجل قرنا كاملا حكم فيه ٩٤ عاما متواصلة وهى أكبر مدة حكم فى تاريخ مصر والعالم أصيبت اجهزة الحكومة المركزية بالشلل المطلق ، ووصلت الأحوال الى درجة هائلة من السوء ، ولم يعد قادرا على تسيير دفة البلاد بعد أن أبلى فى حياته الواحدة ثلاثة أجيال من الموظفين والمستشارين ، ويبدو انه عكف فى نهاية حياته منزويا فى قصره ، وحوله زمرة من أفراد

الحاشية الانتهازيين الذين كانوا يحجبون عنه حقيقة ما وصلت اليه الأحوال من السوء ، أو « يغذونه بالأكاذيب » على حد قول الحكيم ايبور ..

وعندما فاض الاناء بالشعب وتراكمت في أعماقه مشاعر السخط والغضب ، وناء تحت وطاة الفساد والاستغلال ، ولم يعد امامه مخرج سوى الانطلاق في تلك الثورة العارمة التي اكتسحت في طريقها كل شيء ، وقلبت كل الأوضاع الدينية والاجتماعية ، على نحو ما سنراه في تحذيرات ذلك الحكيم ايبور ..

لقد ثار الشعب ضد الفراعنة والنبلاء وحكام الأقاليم ، وقضى على سيطرتهم وامتيازاتهم وحطم مقابرهم وتماثيلهم ، واضطربت كافة شئون المجتمع حتى أصبحت الأرض تدور كعجلة صانع الفخار .. وعندما هدأت الأحوال واستقر النظام أخيرا بقيام الدولة الوسطى اتضح انه كان لهذه الثورة الجامحة الى جانب وجهها السلبي المدمر جانب أخر ايجابي بناء في مجال القيم الأخلاقية المعنوية ، إذ نجحت في نقل الفكر المصرى القديم من مجراه القديم الى مرحلة جديدة تعترف بحق الشعب في الخلود وقيم العدالة الاجتماعية والديموقراطية الدينية ، فكان ذلك ارهاصا بالاعتراف بحقوق الأفراد وحق الشعب لأول مرة في التاريخ

تحذيرات الحكيم ايبور ..

ولنستمع الى تحذيرات الحكيم ايبور للملك بيبي الثاني التي يصف فيها الأحوال بفعل الثورة المشتعلة خارج اسوار قصره والتي لا يكاد يسمع عنها شيئا بفعل بطانته التي تغذيه بالأكاذيب وهذه التحذيرات وصلت الينا في وثيقة مكتوبة في عهد الأسرة الحادية عشرة ، ولكن يبدو انها منقولة عن اصل اقدم منها او سجلت عن السنة الرواة كما حدث بالنسبة للشعر الجاهلي الذي تم تسجيله في صدر الاسلام بعد أن ظل قرونا في صدور حافظيه .

يبدأ النص بإعلان ان الثورة كانت عامة اشتركت فيها مختلف طوائف الشعب وقطاعاته « حتى أصحاب اهدأ الحرف كبائعي الحلوى وصانعي الجعة » .

وما أن نقرأ بضعة سطور حتى نعرف ان الحكومة قد انهارت بكل اجهزتها ودواوينها ومحاكمها ، ونهب ما فيها من سجلات ووثائق ، وديست القوانين بالأقدام .

يقول ايبور « لقد سلبت وثائق قاعة العدل ، واصبح المكان السرى مكشوفا ، وطرحت سجلات المحاكم أرضا ، وصار الناس يطئونها بالأقدام في الساحات العامة والفقراء يبقرونها على قارعة الطريق » .

ولم تنج الادارات العامة من هذا المصير ، وافشيت الأسرار المقدسة ، وشملت حملة الانتقام اشخاص الموظفين انفسهم ، يقول ايبور :

« انظر ، لقد هوجمت الادارات العامة ونهبت قوائمها ، واذيعت أسرار التعاويذ السحرية .. وفي الحق لقد ذبح الموظفون ، وسلبت دفاترهم ، ولم تعد لكبار الموظفين كلمة مسموعة » .

بل ان المؤسسة الملكية نفسها لم تنج من هذا المصير فانهارت الملكية ونهبت مقابر الملوك وحطمت تماثيلهم .

« انظر ! لقد تجاسر الثائرون فحرموا البلاد الملكية ، وأصبح الناس يظهرون العداء للملك ، وما خبأته الأهرام اصبح خلوا »

وترتب على انهيار الحكومة ان اختل الأمن ، وعمت الفوضى في البلاد ، فلم تعد للدولة قوة رادعة تحمي المواطنين ، وانتشرت عصابات قطاع الطرق ، واصبح على كل فرد أن يحمي نفسه بوسيلته الخاصة ، يقول ايبور :

« لقد امتلأت البلاد بالعصابات حتى ليذهب الرجل الى حقله حاملا درعه ..

« لقد أصبح حامل القوس مستعدا ، والمجرمون فى كل مكان ، واصبح قطاع الطرق يختبئون فى الأكمات حتى اذا أتى المسافر ليلا انقضوا عليه فسلبوا أحماله ، وما لديه يسرق ، ويضرب بالعصا حتى تخمد أنفاسه ، ثم يذبح ظلما » .

« ان الرجل ليذبح بجوار أخيه فيتركه وحيدا لينجو بنفسه » ! كما ترتب على انهيار الحكومة أن توقفت جباية الضرائب ، وافلست الخزانة العامة ، ونهبت المخازن الملكية وأقفرت من الخيرات .

ان مخازن الملك اصبحت ملكا مشاعا لكل فرد ، ولا ضرائب تجبى للقصر كله رغم انه ينبغى أن يكون للقصر شعير وقمح ودجاج وسمك ، وقد كان يحوى المنسوج الأبيض والتيل الجميل والنحاس والزيت ويملك الحصر والبسط وكل الأشياء الجميلة .

ان المقاطعات لا تؤدى الضرائب بسبب الحروب الداخلية ، وهناك حاجة الى الفاكهة واللحم وكل أنواع التجارة وما ينتجه الصناع ، فما فائدة وجود بيت مال بدون دخل ؟

وتدهورت الحالة الاقتصادية فى البلاد ، فتوقف الانتاج ، وبارت الزراعة ، وهجر الناس الحرف والصناعات ، وعم الفقر والخراب ..

وتمتلىء بردية ايبور بوصف مظاهر هذا الخراب الاقتصادى ، فتقول :

« ان النيل يفيض ، ولكن أحدا لا يذهب للحرث ، وكل انسان يقول لا اعرف ماذا حدث فى البلاد » مما يدل على أنه لم يعد للناس ثقة كافية لفلاحة الأرض فى هذا الزمن العصيب ، فهجروا الأرض وتركوا المواشى تهيم على وجوهها ، ولم يعد للناس شىء .

وفى الحق .. لقد نفدت الغلال فى كل مكان ، وتجرد القوم من الملابس والعطور والزيوت ، وصار كل انسان يقول لم يعد عندى شىء ، وتركت الماشية تهيم على وجوهها وليس هناك من يعتنى بها ، وكل انسان يذهب ويأخذ لنفسه منها ما يريد ..

وتوقفت الصناعات « فلم يعد هناك صانع يعمل ، والعدو يحرم البلاد حرفها » ..

وتعطلت التجارة الخارجية التى نشطت فى عهد الدولة القديمة مع فينيقيا وغيرها من الدول البحرية .. « وأصبح الناس لا يبحرون شمالا الى بيبلوس » .

وأدى هذا الانهيار الاقتصادى الى انتشار القحط والبؤس والمجاعة حتى أصبح القوم يقتاتون بالحشائش ، ويعيشون على الماء القراح ، وحتى الطيور لا تجد ما تأكله من فاكهة وأعشاب ، وأصبحت القاذورات تخطف من أفواه الخنازير ..

وانتشرت الأمراض والأوبئة بسبب انهيار الاقتصاد والصحة العامة ، وأدت القاذورات والمجاعة الى هلاك خلق كثيرين ..

لقد انبث الوباء فى كل الأرض ، والدم صار فى كل مكان ، وأصبحت لفائف الموميات تجار بالشكوى دون أن يقترب منها انسان وكانت الجثث من الكثرة بحيث تعذر دفنها فكانوا يلقون بها فى النهر كالماشية الميتة .. « وفى الحق لقد دفن أناس عديدون فى النهر فاصبح لهم قبرا » .

وصار الناس يقدمون على الانتحار عن طيب خاطر هربا من هذا الجحيم ..

« لقد أصبحت التماسيح فى تخمة بما سلبت إذ يذهب اليها الناس عن طيب خاطر » .

انتقام الجياع ..

وكان من الطبيعى أن تدفع هذه الأوضاع الشعب الجائع الى مهاجمة قصور الحكام والأثرياء ، فانزل بهم اسوأ الانتقام من قتل ونهب وحرق وطرد ..

« وأصبح الحزن يملأ قلوب أصحاب الأصل الرفيع ، أما الفقراء

فقد امتلأوا سرورا ، وأصبحت كل بلدة تقول فلنقص أصحاب الجاه من بيننا » ..

وتزخر وثيقة تحذيرات الحكيم ايبور بوصف دقيق لما حل بالطبقة العليا من الانتقام ، إذ يلاحظ أن « الحكام أصبحوا جياعا وفى بؤس شديد » وأن « قضاة البلاد قد طردوا من طول الأرض ورؤساء البلد يهرولون دون أن يكون لهم عمل وشمل انتقام الشعب أبناء الأمراء وموميااواتهم « حقا لقد أصبح أولاد الأمراء يضرب بهم الناس عرض الحائط ، والأطفال الذين كانوا محبوبين ألقى بهم على قارعة الطريق » وانتزعت موميات علية القوم من قبورها .. « والذين كانوا فى المكان الطاهر قد ألقوا على قارعة الطريق وأصبح سر التحنيط مستباحا » ..

« ان الأرض أصبحت ملآى بالعصابات ، والرجل العظيم يغتصب التعساء متاعه ، وصارت المخازن خاوية ، وحراسها يلقون على الأرض » .

ونهب الجياع ثروات الأثرياء ، فأصبح الذين يملكون لا يملكون ، والذين كانوا محرومين من كل شىء يتمتعون بأجمل الأشياء وأندرها حتى لو لم تكن ذات نفع لهم أو كانوا لا يستطيعون تقدير قيمتها ، وقد أفاض الحكيم ايبور فى وصف مظاهر هذا الانقلاب الاجتماعى فى مقارنات بديعة مريرة ساخرة ..

يقول الحكيم ايبور :

« حقا ، لقد أصبح المعوزون يملكون الآن أجمل الأشياء ومن كان يرتق نعليه فيما مضى صار صاحب ثروة .

أنظر .. أن من لم يكن فى مقدوره أن يصنع لنفسه تابوتا أصبح يملك قصرا ..

ومن لم يكن فى قدرته أن يقيم لنفسه حجرة أصبح الآن يملك فناء مسورا ..

ان الرجل الغنى أصبح يمضى الليل وهو ظمآن ومن كان يستجدى منه الحثالة أصبح يملك الآن الجعة الجيدة ..

ان الذين كانوا يملكون الملابس أصبحوا يرتدون الخرق البالية ومن كان لا ينسج لنفسه أصبح يملك الكتان الجميل ..

أنظر .. ان من لم يكن يملك قاربا أصبح الآن يملك سفنا ، وصار صاحبها ينظر اليها كمدا بعد أن لم تعد ملكا له ..

ومن لم يكن يملك ما يقيه حرارة الشمس أصبح يتمتع بالظل ومن كان لهم ما يأويهم أصبحوا الآن عرضة لزعزاع العواصف ..

انظر .. أن من لم يكن يملك ثورا أصبح يملك قطعانا ومن لم يكن يملك حفنة قمح أصبح يملك أجرانا ، ومن كان يستجدى قليلا من القمح أصبح يخرج من مخازنه الصدقات ..

ان من لم يكن له أتباع أصبح الآن رب عبيد ومن كان من علية القوم أصبح ينفذ أوامره ..

ويمضى الحكيم ايبور فى هذه المقارنات المرة فى أجزاء متفرقة من تحذيراته ، ثم تزداد لهجة سخريته مرارة وهو يقول :

« ان الأصلع الذى كان لا يستعمل الزيت أصبح يملك أوانى العطور الذكية » !

ومن كانت تشاهد وجهها فى الماء أصبحت صاحبة مرآة ..

ومن كان يجهل العزف بالعود أصبح يملك قيثارا ..

ومن كان لا يغنى له أحد أصبح يملك الثناء الجم لدى آلهة الغناء ..

ان الذين كانوا ينامون على الأسرة أصبحوا يرقدون على الأرض ، والذى كان ينام فى الأوساخ أصبح يملك سريرا ..

وينتقل الحكيم ايبور الى لهجة أكثر تأثيرا فى آذان سامعيه فيمضى فى تصوير ما آل اليه حال السيدات النبيلات من ضعة وهوان بعد انقلاب الأوضاع الاجتماعية ، فهن قد اضطررن الى العمل بأيديهن

او التسول أو بيع أجسادهن ليحصلن على القوت فى الوقت الذى اصبحت الفقيرات يرفلن فى الترف ، فيقول :

« ان الذهب واللازورد والفضة والياقوت اصبحت تحلى اجياد الجوارى فى حين أن السيدات النبيلات يجبن الطرقات متسولات يقلن ليت عندنا شيئا ناكله ..

لقد اصبحت ربات الخدور فى حالة تستحق الرثاء يرتدين الخرق البالية ويتوارين خجلا اذا حياهن احد ..

ان اللواتى لم يشاهدن ضوء النهار (كناية عن السيدات المترفات القابعات فى الخدور) قد خرجن ، والعقيلات الشريفات يرقدن على الفراش الخشن (كناية عن بيع اجسادهن) ..

واصرح من ذلك : أن السيدات النبيلات اللاتى كن متاعا حسنا اصبحن الآن يقدمن اجسادهن فى الفراش ، والذى كان لا يستطيع ان يتخذ له زوجة اصبح الآن يجد السيدات النبيلات » .

ودارت الدائرة ايضا على أبناء الوجهاء ، إذ تخلى عنهم آباؤهم وأمهاتهم :

« انظر .. أن السيدات الشريفات يهربن ويلقين بأطفالهن خشية الموت .. ان أولاد رجال البلاط اصبحوا فى خرق بالية ، وأولاد الحكام يلقون فى الطرقات » .

★ ★ ★

الحالة النفسية : الحزن والالحاد ..

ويلخص الحكيم ايبور الموقف بقوله ان « الأرض أصبحت تدور كعجلة صانع الفخار » أى أن أقدار الحياة قد تبدلت ، وأصبح من كان فى الأعلى فى أسفل ، ومن كان فى أسفل السلم الاجتماعى صار فى أعلاه ، كما تدور عجلة صانع الفخار فتاتى عاليها بسافلها ..

والتهمت النيران البوابات والعمد والجدران ، وتحطمت التماثيل البديعة المصنوعة من حجر الديوريت ، أو ألقى بها فى أبار المقابر . وأصبحت الأرض الحمراء منتشرة فى كل مكان ، وخربت المنازل ، وتكسرت الصناديق المصنوعة من الأبنوس ، وتحطمت الأخشاب الثمينة ، واقتلعت الأشجار من جذورها كأعواد الكتان ، وصارت الاناث عاقرات ، وامتنع الحمل ..

وانعكست هذه الأوضاع على نفسيات الناس ، فحلت الآلام والأحزان محل البهجة والسرور ..

« لقد قضى على الفرح ، فلم يعد أحد يشعر به ، والحزن والأسى ينتشران فى البلاد ..

ان الوجوه قد شحبت ، والقلوب قد انفطرت ، والعظماء لا يقيمون الأفراح ..

ان الأغانى أصبحت تعبر عن الحزن ، والذين كانوا يجلبون البهجة بأقاصيصهم أصبحوا يجلسون على أحجار الطواحين (أى أن القصاصين الذين يسلون الناس أصبحوا بلا عمل) ..

وحتى الماشية :

« أصبحت قلوب الماشية تبكى ، والقطعان تندب حالة البلاد »

وشاعت فى الناس موجة من الشك والالحاد وعدم الخوف من الآلهة ، وهذا انقلاب خطير نشهده لأول مرة فى الفكر المصرى القديم الذى يتميز فى كل عصوره بقوة الايمان الدينى ..

يقول ايبور :

« صار الرجل الأحمق يقول اذا عرفت اين يوجد الاله قدمت له القرابين »

« ان القصابين يذبحون الأوز ويقدمونها للآلهة على انها ثيران » !

« وفى الحق ، لقد اصبحت التقوى اسما فقط ، والظلم قد ساد بدلا منها » ..

وانتشر اليأس القاتل فى النفوس حتى أصبح الناس ينشدون الموت تخلصا من آلام الحياة :

« اصبح العظماء والحقراء يقولون اين هو الموت ، والأطفال الصغار يقولون ليتنا لم نولد فى هذه الحياة »

تصنيفات ايبور ..

وادت هذه الأحداث الجسام الى اضعاف البلاد فغزاها الأجانب وطمع فى خيراتها الطامعون وساموا أهلها الذل والهوان ..

يقول ايبور : « لقد نزل قوم اغراب من الخارج الى مصر » لأن « الدلتا اصبحت بلا حماية » وأوقف الأجانب عجلة الانتاج فى البلاد او سيطروا عليها من ايدى المصريين : « فلا صانع يعمل لأن العدو حرم البلاد حرفها » و « أصبح الأجانب هم المهرة فى صناعات الدلتا » ..

واصبحت مصر من الذل « كالجارية* التى تصب الماء على ايدى أسيادها » !

ويضيق الحكيم ايبور بهذه الأوضاع والمآسى فيستمطر اللعنات على كل شىء ، ويتمنى أن ينقرض الناس وتعقم النساء ويقول :

« ليتها تكون النهاية للجميع ، ليته لا يكون هناك حمل ولا ميلاد ، وتخلو الأرض من الضوضاء والنزاع » ..

ثم يمضى الحكيم ايبور فيعنف نفسه ويلقى اللوم عليها لأنه لم يحذر من هذه الأوضاع من قبل ، فيقول :

« ليتني كنت قد رفعت صوتي قبل الآن ، لربما انقذت نفسى مما اعانيه ، ما اشد حزنى بشقاء هذا العصر » !

وينتقل ايبور من تعنيف نفسه الى شن الهجوم الشديد على الملك الجالس على العرش فينحو عليه باللائمة حيث يعكف منعزلا فى قصره بينما تغذيه حاشيته بالأكاذيب ، فيقول له :

« ان القيادة والفطنة معك ، ولكنك لا تستخدمهما ، بل تترك الأرض نهبا للفوضى والخراب » .

ثم يصيح فى وجه الملك قائلا :

« ليتك تذوق بعض هذا البؤس بنفسك » ولكنه لا يلبث ان يعود الى اللين فيأخذ فى تذكير الملك بما كانت عليه الأحوال قبل الاضطرابات من خير عميم ، وكيف كانت اقدار الناس محفوظة وشعائر الآلهة تؤدى على خير وجه ، فيقول :

« تذكر كيف كانت ترعى الأنظمة ويعزل الأشرار .. كيف كانت تقدم القرابين وتطهر المعابد ، كيف كان معبد الاله طاهر كاللبن تطلق فيه البخور وتقدم القرابين من الخبز ..

« تذكر كيف كانت الثيران تذبح ، وتوضع الأوز على النار » ويغير الحكيم ايبور لهجته للمرة الثالثة فيمضى يحلم بعصر ذهبى جديد يشرق فى الأفق تستقر فيه الأحوال مرة أخرى وتبعث القيم من جديد ، وتنتعش النفوس بالآمال ، ويزول الغم عن البلاد وهذه أول نبوءة فى التاريخ عن « اليوتبيا » أو مدائن الأحلام :

« انه من الخير ان تسير المراكب جنوبا ..

انه من الخير ان تنصب الشباك وتصاد الطيور ..

انه من الخير ان تشيد أيدى الناس الأهرامات وتحفر البرك وتقيم للآلهة مزارع فيها أشجار ..

« انه من الخير أن يصبح الناس سكارى بفرح القلب ..

انه من الخير أن يرتسم السرور فى الوجوه ، وحكام الأقاليم

يقفون وينظرون الى الأفراح المقامة فى بيوتهم وهم يرتدون أجمل الملابس ..

انه من الخير ان تكون الأسرة وثيرة ، ووسائد العظماء محمية بالتعاويز ، ويحصل كل انسان على سرير خلف باب مغلق ولا يضطر الى النوم فى الأعشاب »

مرتبة نفرروهو ..

وهناك وثيقة أخرى تتعرض لوصف الثورة هى نبوءة « نفرروهو » وهى لا تصف أحداث الثورة فى ذاتها بقدر ما تتعرض لآثارها الفكرية والسياسية والاجتماعية مما يدل على أن كاتبها لم يشهد بنفسه أحداث الثورة مثل ايبور والواقع أن هذه الوثيقة كتبت فى أوائل عهد الأسرة الحادية عشرة والغرض منها الدعاية لمؤسس هذه الأسرة امنمحات الأول . أما الجزء الذى يصف آثار الثورة فيقول :

« انتبه ياقلبى وأذرف الدمع السخين على هذه البلاد فى كل نبضاتك . اصبحت البلاد خرابا ، ولا أحد يهتم بها ، ولا من يتحدث او يذرف الدمع السخين ..

كيف امست هذه البلاد واضحت ؟

ان الشمس قد احتجبت ولم تعد تشرق ليرى الناس .

ونهر مصر قد جف حتى ليستطيع المرء أن يعبره ماشيا

ان كل ما هو طيب قد ولى ، والبلاد خضعت للشقاء وغزاها البدو ..

ان الأعداء قد ظهروا فى مصر ، والآسيويين قد نزلوا الى بر مصر

سوف اريك هذه البلاد ذليلة بائسة ، وما لم يكن يحدث أبدا قد حدث ..

سوف أريك الابن وقد اصبح عدوا ، والأخ قد أصبح خصما ،

والابن يقتل أباه ، والأفواه ملآى بعبارات الاستجداء ، وكل الأشياء الطيبة قد ولت ، والأرض يعمها الخراب ، وأملاك المرء تنزع منه وتعطى للقريب ..

لسوف أريك المالك يعانى الحاجة والغريب قد استولى على ماله ..

ان الأرض تضاءلت وحكامها قد تضاعفوا ..

والقمح أصبح نادرا ، ولكن المكيال كبير ، وجامع الضرائب يصر على أن يجعله رابيا ..

لسوف أريك الأرض ترسف فى أغلال العبودية واقليم هليوبوليس لم يعد مستقرا للآلهة ..

وبالرغم من أن هذه المقطوعة الأدبية وضعت أساسا لتمهيد الأذهان لظهور امتمحات الأول فى صورة البطل المخلص الا انها تصور الحالة الاجتماعية التى كانت تحياها مصر فى عصر الانقطاع الأول وهو عصر الاقطاع الذى تلا الثورة التى هدمت النظام الجديد ولم تنجح فى ايجاد نظام جديد للحكم . والثورات الفاشلة تجلب دائما من الظلم أكثر مما قامت لهدمه ..

فها نحن مع نفرروهو نرى مصر فى حالة سيئة تستدر الدموع ، ولكن أحدا لا يذرف عليها دمعة واحدة ، وكأن الدموع قد جفت فى المآقى ، أو لكأن القلوب قد تحجرت فلم تعد تشعر أو تتألم ، فقد أصبحت البلاد خربة ممزقة ضعيفة متهالكة ، وحتى الشمس قد احتجبت كناية عن الظلام المعنوى الذى يعيش فيه الناس فاصبحوا ينظرون ولا يبصرون ، وحتى النيل قد جف ولم يعد يفيض كعهده بالخيرات ، وكل ما هو طيب قد انقضى وولى ، وأتى الغزاة الأجانب من الشرق والغرب ليسوموا مصر الخسف والهوان ، ويظهروا على أبنائها ، ويتمتعوا دونهم بخيراتها . أما أهل البلاد فقد هووا الى الدرك الأسفل بسبب الفقر والحاجة ، فأصبح الابن يقتل أباه ، والأخ يعادى أخاه ، ولا يهرع لنجدته اذا

تعرض لخطر أو أصابه مكروه ، لأن هم كل انسان ان ينجو بنفسه ، ولكن شبح المجاعة وظلم الحكام يطاردان الجميع ، فأصبحت الأفواه ملآى بعبارات الاستجداء ، وأصبح الناس لا يجدون كفايتهم من الخبز ، ولكن جامعي الضرائب لا يشفقون على حالهم ، وإنما يصرون على استخدام مكيال كبير ويستوفون به الكيل رابيا !

خع خبر رع سنب ..

رأينا كيف صور الحكيم ايبور ونفرروهو سوء الأحوال الاجتماعية باسلوب يقطر حزنا وأسى ، ولكن الاحساس بالمجتمع وبالعلاقات الاجتماعية لا يبدو واضحا قويا كما يبدو في تأملات الكاهن « خع خبر رع سنب » وكان من كهنة هليوبوليس في عصر الاقطاع ، وهذه التأملات منقوشة على لوح من عهد الأسرة الثامنة عشرة وهي محفوظة الآن بالمتحف البريطاني ، وفيها يقول :

« ان العدالة قد نبذت ، وحل الظلم محلها في قاعات العدل ، ان تعاليم الآلهة قد انتهكت ، وأوامرها قد أهملت ، ان البلاد صارت في هم والحزن في كل مكان ، والمدن والأقاليم في عويل ، وكل الناس على السواء يرتكبون الآثام ، أما الاحترام فقد مضى عهده وانقضى » ..

ويمضي « خع خبر رع سنب » يندب سوء الأحوال وهو يتحدث الى قلبه قائلا :

« عندما أريد ان اتحدث عن ذلك ينوء جسمي بحمله ، وأشعر بالبؤس في قلبي المحزون ، فما من قلب يتحمل ذلك مطلقا ، ولكن القلب الشجاع يكون رفيقا لسيده في الملمات ، ليتك ياقلبي تتحمل الألم حتى يمكنني أن أسر اليك ببلواي ، ولأحدثك ، ولتجيبني على كلامي وتفسر لي ما يجري في البلاد ، انني اتأمل ما قد حدث ، ان المصائب تقع اليوم ومصائب الغد في طي القدر ، وكل الناس على ذلك لاهون مع أن البلاد في اضطراب عظيم ، ولا أحد يسلم من الشر ، ان

الجميع يرتكبون الآثام ، والحزن يفعم القلوب ، والذى يعطى الاوامر لا يفترق عمن تصدر له الأوامر ، وقلب كل منهما ساكت عما حدث ، ان الناس يستيقظون على الشر كل صباح ، والقلوب لا تنبذ الشر ، فما كانت عليه بالأمس تكرره اليوم ، وليس من عاقل يدرك ، أو حكيم يستبد به الغضب فيدفعه الى الكلام ، ما أثقل همى واطوله ! ان الضعيف لا يملك ان يدفع عن نفسه أذى القوى ، وانه لمن المؤلم أن يسكت الانسان على هذه الأمور » .

● ● ●

هذه القصائد الثلاث تصور بالتفصيل سوء الأحوال الاجتماعية التى ترتبت على انهيار النظام القديم واندلاع الثورة الشعبية التى اتت على كل شيء . ولكن هذه الثورة لم تدمر الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وحدها وانما زلزلت كل المعتقدات القديمة وادت الى انهيار الصرح المثالى الذى قامت عليه الحضارة الفرعونية ، وأتت بأفكار الشك والمادية ، ونقلت الفكر المصرى الى مجرى جديد تماما يقوم على البحث عن العدالة الاجتماعية والاعتراف بحقوق الأفراد وحقوق الشعب ..

● ● ●



بزوغ القيم الفردية والديمقراطية

اتت نيران الثورة الشعبية التى اندلعت فى اواخر ايام الأسرة السادسة على كل مظاهر المدنية والحضارة فى الدولة القديمة وادت الى انهيار العلاقات الاجتماعية بين الطبقات والأفراد . وقد انعكست هذه الأوضاع السيئة على الحالة النفسية للناس . وكان من الطبيعى ان تنعكس ، وقد حدثنا الحكيم ايبور كيف ان السرور والافراح لم يعد لها مكان فى القلوب ، وكيف كان الناس يطلبون الموت ويقدمون على الانتحار ..

وقد حفظ لنا التاريخ وثيقة فريدة اخرى تصور ادق تصوير هذه الحالة النفسية التى اخذت بخناق النفوس بسبب فساد الأحوال الاجتماعية وهى وثيقة بدون عنوان فى الأصل ، ولكن يطلق عليها المؤرخون « حوار بين انسان سئم الحياة وبين روحه » وقد حللها برستيد تحليلا دقيقا فى كتابه « فجر الضمير » وشبه صاحبها الذى توالت عليه الأمراض والنكبات والرزايا بالنبى ايوب .

وهنك فى الواقع تشابه كبير بين سائم الحياة الفرعونى والنبى ايوب السامى مما يجعل من المحتمل ان تكون هذه الوثيقة المصرية القديمة هى الأصل التاريخى لقصة النبى ايوب .

وايوب المصرى هذا كان رجلا لطيف الروح مرهف المشاعر ، ولكنه سقط فريسة لسوء الحظ ، فقد دهمته الأمراض وهجره الأهل والأصدقاء ، ولم يجد احدا يهتم به او يعتنى بامره ، بل ان جيرانه سرقوا امواله ، واصبحوا يتافقون من ذكر اسمه ، لقد اصبح اسمه كالرائحة الكريهة فى الانوف ، ولم يشفع له لدى هذا المجتمع الظالم مافعله من الخير فيما مضى ، ولذا قرر ذلك البائس ان ينهى

حياته بيده ، فنراه واقفا على حافة قبر يراود نفسه على الاستقرار فيه الى الأبد ، ولكن روحه لاتطاوعه ، ويقوم حوار بينه وبين روحه كما لو كان يتحدث الى شخص اخر ، فتقول له روحه انها تخشى الا تجد قبرا تستقر فيه بعد الموت ، وتقترح ان يكون الانتحار بالحرق ، ولكنها تعود فتنكص عن هذه النهاية المؤلمة وترفض فكرة الانتحار تماما ، وتأخذ في تصوير اهوال الموت « جالب الحزن والدموع حيث يؤخذ الانسان من بيته ويطرح على التل ، وحيث يهبط الانسان الى حيث لايرى الشمس » وتعرب الروح عن شكها فيما وراء الموت .. فاى فائدة جناها هؤلاء الذين بنوا مقابرهم من الجرانيت الأحمر ، واقاموا لهم الأهرامات الجميلة الخالدة ، واصبحوا كالآلهة ؟ اليست موائد قرابينهم قد اضحت خالية وخربة ومسهم البلى تماما كاولئك الفقراء والمساكين الذين يهلكون فوق الجسور وتحت شواظ الشمس الحارقة لتنهشهم في النهاية اسماك البحر ؟ وتقترح عليه روحه حلا وحيدا هو ان يتمتع ما أمكنه بالسعادة في هذه الحياة دون ان يلقى بالا الى شيء . (أو كما نقول في مثلنا الشعبي : يضربها جزمة !)

وهذه نغمة جديدة تماما على الفكر المصرى التقليدى : الشك فيما وراء الموت والبحث عن الخلاص في مباهج الحياة . ولكن قبل تحليل هذه النغمة الجديدة يجدر بنا ان نقف أولا على افكار ذلك البائس الذى سئم الحياة لنعرف شيئا عن حالته النفسية .

انه يلقى اربع مقطوعات شعرية يصف في الاولى الى اى مدى اصبح ذكره مقيتا كريها لدى جيرانه ومعاصريه ، ويتحدث في الثانية عن فساد الأحوال الاجتماعية وهو سبب ماهو فيه من غم وحزن ، ويتغزل في الثالثة في فكرة الموت باعتباره الراحة الوحيدة ويفرد الرابعة لمراجعة النفس وثنيها عن الحزن والأسى .

تقول المقطوعة الأولى :

انظر .. ان اسمى مقيت
اكثر من قاذورات الطير
فى ايام الصيف تحت سماء ساخنة
اكثر من وعاء السمك
فى يوم صيد تحت سماء ساخنة
انظر .. ان اسمى مقيت
اكثر من رائحة الدجاج
فوق تل من الصفصاف ملىء بالأوز
انظر ان اسمى مقيت
اكثر من رائحة الصيادين
على شطآن مستنقع بعد انتهاء الصيد

هكذا يشعر هذا البائس بالألم والأسف لنفور الناس منه ، ثم يتلفت ليتعرف عن سبب بؤسه وماساته فيعرف انه المجتمع ومآآلت اليه الأمور من فساد وخيانة وظلم ، فينطلق فى شكوى مريرة من المجتمع تحمل أعنف استنكار للفساد الاجتماعى فى كل العصور ، فيقول فى مقطوعته الثانية :

الى من اتحدث اليوم ؟
ان الاخوان اشرار
واصدقاء اليوم لايستأهلون الحب !
الى من اتحدث اليوم ؟
ان القلوب قلوب لصوص وكل شخص ينهب مالجاره
الى من اتحدث اليوم ؟
ان الرجل المهذب قد اختفى
وصاحب الوجه المكشوف يتقدم الصفوف !
الى من اتحدث اليوم ؟
ومن يجب ان يثير الغضب بسلوكه الشرير
يثير حبور الناس ويمدحونه تملقا !

الى من اتحدث اليوم ؟
والناس يزاولون السرقة
وكل شخص يستولى على ماليس له !
الى من اتحدث اليوم ؟
ولم تعد هناك فضيلة
والأرض يرثها اصحاب الرذائل !

ويخلص سائم الحياة من ذلك الى ان الحياة اصبحت لاتستحق ان تعاش ، ولذلك فهو يتوق للموت ، ويمضي فى مقطوعته الثالثة يتغنى بالموت قائلا :

الموت امامى اليوم
كالشفاء للمريض
كنزهة فى الحديقة بعد المرض !
الموت امامى -اليوم
كشذى الراتنج
كالجلوس تحت شراع فى النسيم !
الموت امامى اليوم
كعبير ازهار اللوتس
كالدخول فى نشوة الخمر
الموت امامى اليوم
كالجو المنعش
كعودة المحارب المكدود الى بيته
الموت امامى اليوم
كصفاء السماء
كرجل يقتحم المجهول
الموت امامى اليوم
كرجل يحن الى رؤية بنيه

بعد سنوات طويلة فى الأسر

اما مقطوعته الرابعة فتتكون من ثلاثة ابيات فقط تأخذ فيها الروح فى تخفيف الام صاحبها وتطلب منه ان يتخلى عن الحزن والأسى ويستقبل مباهج الحياة .

ويمكن ان نلاحظ على هذه القطعة الفريدة فى التغنى بمآثر الموت انها لاتربط فكرة الموت مطلقا بفكرة الاله والحساب والعالم الآخر بل تقتصر على تصوير الموت بأنه نهاية سعيدة لآلام نفسية مبرحة ، فالحياة فى نظر هذا البائس نهاية سعيدة لآلام مبرحة ، فالحياة فى نظر هذا البائس كالمرض الطويل الذى نشفى منه بالموت ، والموت كفترة النقاهة بعد المرض ، وكشذى الزهور الجميلة ، وكرحلة على صفحة الماء فى يوم يهب فيه النسيم ، وكعودة المحارب المتعب بعد اهوال الحرب الى بيته ، او حنين الأسير الى رؤية بنيه بعد ان قضى سنوات طويلة فى ربقة الأسر .

وهذه نغمة جديدة تماما على الفكر المصرى القديم الذى كان يربط دائما بين فكرة الموت والعالم الآخر بما فيه من آلهة وعقاب وثواب ، بل ان الفكر الدينى فى عهد الدولة القديمة لم يكن يعتبر الموت نهاية بل يعتقد ان الحياة الحقيقية هى التى تبدأ فى السماء ، ومن هنا جاءت محاولة التغلب على الفناء المادى للجسد باقامة المقابر المنيعة وتحنيط اجساد الموتى ، وتزويد المتوفى بالأطعمة واحاطته باتباعه وتماثيله ووسائل ترفه الدنيوى ، فلو كان الموت نهاية لما كان هناك مايدعو الى كل هذه الاحتياطات ، ولكن الموت فى نظر الفكر التقليدى ليس سوى حياة بكل معنى الكلمة يحياها المتوفى فى العالم الآخر مع رع الذى يأخذ بيده فى رفق ويرفعه اليه .

ان تصوير سائم الحياة للموت لايمكن ان ينبع الا من فلسفة مادية لاتؤمن او تهتم بالعالم الآخر ، ويكفى انه ينظر الى تجربة الموت كغيبوبة لذيذة يعبر عنها ادق تعبير بأنها تشبه الدخول فى نشوة الخمر .

وترتيبا على ذلك يمكن القول بان الثورة الشعبية الجامحة التى قامت فى اعقاب الأسرة السادسة وامتدت تحت الرماد طول عهد الاقطاع لم تقتصر على هدم اعمدة المجتمع القديم بل هدمت الصرح المثالى لذلك المجتمع باكمله ، وأتت بافكار مادية لم تكن معروفة من قبل ، ويمكن ان نصف هذه الأفكار بحق بانها اقدم مظهر للفكر المادى فى تاريخ البشرية . وقد سبق ان رأينا فى وصف الحكيم ايبور للثورة كيف انها اتت بحالة من الشك والاستخفاف بالآلهة حتى « ان الرجل الأحمق اصبح يقول ارنى اين يوجد الاله فاقدم له القرابين » واصبح الناس كما يقول الحكيم ايبور يغشون الآلهة فيقدمون لها قرابين من الأوز على انها ثيران ، وهانحن نرى فى « حوار بين انسان سئم الحياة وروحه » تصويرا للموت يختلف تماما عن صورته فى الفكر المثالى ، ثم اخيرا تلك النصيحة الجريئة التى تنصحه بها روحه بعد ان رفضت فكرة الموت ان يتمتع بيومه السعيد ولايلقى بالا الى شىء !

انشودة عازف القيثار

هذه الأفكار الجديدة لاتبدو جلية واضحة فى شىء مثلما تبدو فى انشودة بديعة يرجع عهدها الى اواخر عهد الاقطاع وبداية الاسرة الحادية عشرة ، وهى اكثر نصوص تلك الفترة شهرة ويبدو انها كانت ايضا اكثر شيوعا فى عصرها لأنها تبرز هذه الأفكار الجديدة فى اسلوب شاعرى رقيق يخاطب الوجدان وعلى نحو واضح صريح وهى انشودة عازف القيثار .

وقد وصلت الينا نسختان من انشودة عازف القيثار احداهما مكتوبة على صحاف من البردى ، والأخرى منقوشة على جدران قبر احد امراء الأسرة الحادية عشرة فى طيبة هو الأمير « انتف » ، ويبدو فيها عازف قيثارة اعمى متقدم قليلا فى السن يعزف الأنشودة على قيثار بمصاحبة جوقة من المغنين والموسيقيين ، وتبدأ الانشودة بتحية الأمير المتوفى قائلة :

ياله من سعيد ذلك الأمير الطيب
ان مصيره قد آل الى الانتهاء

ثم يبدأ عازف القيثار يتحدث عن دورة الزمن ، وتعاقب العصور والاجيال ، ويذكر تلك الحقيقة الخالدة التى تتربص بالجميع وهى الموت ، فيقول :

« اجيال تذهب
واجيال تجىء
هكذا الحال منذ زمن الجدود
منذ زمن الآلهة الغابرة
الذين يستقرون الآن فى اهرامهم
والنبلاء والعظماء الذين رحلوا
ودفنوا فى قبورهم

بعد هذا التصوير السريع لمجرى الزمن ، وتقرير تلك الحقيقة الخالدة التى تطارد البشرية باجيالها المتعاقبة ، فلاينجو منها الملوك والنبلاء والعظماء تفاجئنا الانشودة بتساؤل يدعو الى الحيرة فتقول :

هؤلاء الذين بنوا لأنفسهم الأهرام والمقابر
ان ديارهم كأن لم تكن
ترى ماالذى جرى لهم هناك ؟

ويضرب عازف القيثار مثلا بحكيمين من اعظم حكماء الماضى وماقد جرى لهما بعد الموت اذ تهدمت آثارهما وكأنها لم تكن :

« لقد سمعت اقوال امحتب وحرددف
تلك الأقوال التى جرت مجرى الأمثال
انظر الى مقابرهما
لقد تداعت جدرانها
ولم يعد لها اثر

كأن لم تك بالأمس ! »

ثم يمضى العازف الكهل الاعمى فى افكاره الجريئة الجديدة يؤكد شكوكه بدليل مادى بسيط هو ان احدا لم يعد من الموت ليخبرنا بالحقيقة ..

« ان احدا لم يأت من هناك
ليخبرنا كيف امسوا
وليريح قلوبنا
حتى نرحل نحن الآخرون
الى المكان الذى رحلوا اليه

ولكن عازف القيثار ذى النصرة المادية لا يؤمن بامكان عودة مثل ذلك الشخص الذى يريح قلبه بكشف حقيقة العالم الآخر . وان مجرد تصوير عازف الانشودة بالعمى دليل على انه ـ وهو يمثل الانسان المجرد ـ لايمكن ان يعرف الحقيقة بل يعيش فى ظلام دامس وشك دائم ، ولذلك فانه يبحث عن العزاء فى شىء آخر .. شىء دنيوى بحت هو اغراق نفسه فى المتع والملذات :

وتشجع ياقلبى لتنسى
وانشد المتعة باتباع رغباتك
وانت على قيد الحياة
زين بالازهار رأسك
وارتد الكتان الجميل
وانغمس فى الترف
تلك هى النعم الحقيقية التى منحتها الآلهة ! »

فيالها من دعوة جريئة تتحدى كل تراث الآباء والاجداد وتنكر عقائدهم منذ دبت حضارتهم فى أرض الوادى ، ويالها من صيحة استهزاء وانكار لكل الأفكار المثالية التى اقيمت بوحيها المعابد والأهرام واخترع من اجلها فن التحنيط وظهرت الكهانة باسرارها

المعقدة ، والملوك الآلهة بقوتهم الخارقة . ان عازف القيثار يعلنها ثورة جامحة على كل العقائد المثالية القديمة ، ثم يمضى مؤكدا فلسفته الجديدة قائلا :

« وضاعف مما يبهجك
ولاتدع قلبك يذبل
اتبع رغباتك وماتراه طيبا
وزين شئونك فى الأرض
ولاتتبع سوى وصايا قلبك
حتى يأتى يوم العويل عليك
حين لاتسمع القلوب الصم العويل
ولايسمعه من كان فى القبر !

وهكذا يصرخ انسان مابعد الثورة الشعبية بفلسفته المادية لأول مرة فى تاريخ البشرية ثم يختم انشودته بهذه الدعوة الجريئة.

ابتهج باليوم السعيد
فان احدا لايأخذ امواله معه
ولا احد يعود من حيث رحل

ومما يلفت النظر فى لوحة انشودة عازف القيثار ان العازف يرى جالسا فى مكان مرتفع يطل على اهرامات الدولة القديمة كأنه يتامل تلك الحضارة التليدة التى خلفها الماضى ، والتى تقف صامتة بكماء كشواهد القبور وقد بدأت تمسها يد البلى ، اين هم هؤلاء الذين شيدوا تلك الصروح ؟ اين هو ايمحتب اعظم مهندس فى التاريخ القديم ؟ ان الهرم المدرج اول بناء عظيم فى تاريخ البشرية والذى شيده الملك زوسر قد بدأ يتاكل تحت ضربات الألف عام ، ولكن اين هو ايمحتب ؟ اثر بعد عين ، وكذلك حرددف بن خوفو مشيد الهرم الأكبر اين هو واين اسرته التى قهرت الزمن ؟ ان اهرامهم المهجورة تقف صامته على حافة الصحراء تلفحها الرياح العاتية ولاتملك لهم

نفعا . واين هم اصحاب كل هاتيك القبور المتناثرة فى جنبات الوادى ؟ تداعت جدران القبور ولا احد من اصحابها يعود ليخبرنا بما رآه !

هكذا يكاد الشك يفتك بعازف القيثار .. انسان مابعد الثورة الشعبية الهائلة انه يهز بيده القوية ضمائر المفكرين ويدعوهم الى الثورة ضد العقائد المتوارثة ثم لايلبث ان ينقلب الشك الى يقين فى الانسان وايمان بحياته على الارض وضرورة ان تكون سعيدة هنيئة . فهذه هى القيمة المؤكدة الوحيدة . وهذا هو صلب الفلسفة المادية فى كل العصور .

ولكن هذا التفكير المادى ان لم تسانده ـ كما يقول برستيد ـ نظرية شاملة تفسر الحياة تفسيرا هادفا فانه يصبح مجرد محاولة للهرب من معضلات الحياة واغراقها فقط فى الترف المادى الدنيوى كان لسان حاله يقول « فلنأكل ولنشرب ولنمرح فغدا سوف نموت » !

اما النص الآخر لانشودة عازف القيثار فقد عثر عليه فى مقبرة « نفرحتب » كاهن أمون فى طيبة . ويكاد يشبه تماما فى الفاظه ومعانيه النص الموجود فى قبر الأمير « انتف » فيما عدا بعض الاختلافات اليسيرة مما يدل اولا على ان النصين يرجعان الى اصل واحد . وثانيا على ان هذه الانشودة كانت شائعة الى الحد الذى يسمح بادخال تعديلات جزئية عليها .

يقول نص نفرحتب

ماأهدأ هذا الأمير الصالح
ان مصيره الطيب قد حان
الأجيال تمر
منذ زمن الاله رع
واجيال تجىء

ورع لايزال يشرق فى الصباح
ثم يغرب اتوم فى ملنو (الغرب)
والرجال تلقح والنساء يحملن
وكل انف يتنسم الهواء
ويطلع الصباح
وكل مولود يأخذ مكانه
تمتع بيومك ايها الكاهن الصالح
تنشق اجمل العطور طرا
وضع تيجان الزهر فوق راسك
وطوق بأزهار البشنين عنق اختك
حبيبتك الجالسة الى جوارك
واستمتع بالموسيقى والغناء
واطرح كل الهموم وراء ظهرك
ولاتذكر الا مايبهج قلبك
قبل ان تصل الى شاطىء الصمت »

وتمضى الأنشودة فى حث الانسان على التمتع بيومه غير ملق بالا الى العالم الآخر ، وتذكره بالبيوت الخربة ، والقبور المتداعية ، والآثار الدارسة ، ولكنها لاتنسى ان تحثه على ان يترك وراءه اثرا طيبا بفعل الخير ، لالينال جزاء فى العالم الآخر ، وانما ليبقى اسمه طيبا على هذه الأرض ويذكره الناس بالخير فى المستقبل :

« اعط الخبز لمن لاحق له
وبذلك تصنع اسما طيبا
للمستقبل .. ويبقى الى الأبد ! »

ثم تنتهى الانشودة بنفس الدعوة الجريئة ..

« اشبع كل رغباتك
فلا احد يعود من حيث ذهب ! »

الصراع بين المادية والمثالية

من الأرجح ان انشودة عازف القيثار كانت من الأغاني التى تعزف من مجالس اللهو والمرح ، ولذلك لايمكن اعتبارها من نصوص الفكر الرسمي ، ولكن ذلك لايقلل من دلالتها على انتشار هذا الضرب من التفكير فى ذلك العصر وايمان اوساط الشعب به مما يجعل اثره اكثر عمقا وخطورة .

ومما يلفت النظر ان انشودة اخرى كانت منتشرة فى نفس الوقت تقريبا تعبر عن فلسفة مخالفة تماما لتلك التى تعبر عنها انشودة عازف القيثار ، ويبدو أنها كانت تمثل مدرسة أخرى تخالف المدرسة المادية التي ينتمي اليها عازف القيثار وسائم الحياة ، وكانت هذه الأغنية تنشد احيانا بعد انشودة عازف القيثار كنوع من الاعتذار عنها أو لارضاء فريق اخر من الناس الذين يؤمنون بالعالم الآخر على النحو الذى تصوره العقائد القديمة ، وتقول هذه الأنشودة (ترجمة سليم حسن) :

لقد سمعت تلك الأغاني التى فى قبور الأزمان الغابرة ماذا يقولون حين يمتدحون الحياة الدنيا ويحقرون من شأن عالم الموت

ولم يقفون هذا الموقف من ارض الخلود وهى العادلة حقا التى لا اهوال فيها .

انها تمقت الشجار
وليس فيها انسان يحذر زميله
هذه الأرض التى لاعدو فيها
وكل اقاربنا ماكثون فيها منذ اول يوم فى الدهر
وهؤلاء الذين سيعيشون بعد آلاف السنين
سيذهبون جميعا الى هناك
ولا أحد سوف يبقى فى ارض مصر
وليس هناك من لايرد حوضها

ان بقاء ماعلى الأرض حلم لن يتحقق
والذى يصل الى الغرب
يقال له « اهلا بك سالما معافى »

وهذه الأنشودة تحمل ايضا مسحة التشاؤم التى كانت فيما يبدو من سمات ذلك العصر المضطرب الذى انهارت فيه القيم القديمة ، ولكنها تدعو الى الايمان بالعالم الآخر باعتباره الدار الباقية التى ينتهى اليها كل البشر ، والتى توفر الحياة الحقيقية بلا أهوال او خصومات وحزازات ونلاحظ ان هذه الأنشودة تكاد تذكر انشودة عازف القيثار بالاسم ثم تمضى فى تفنيد فلسفتها وتنتهى الى رفض هذه الفلسفة من اساسها وفى ذلك مايدل على وجود صراع صريح كان مستقرا بين المادية والمثالية فى ذلك العصر الموغل فى القدم .

الحاكم العادل

تجمع كل أدبيات الفترة التى اعقبت الثورة الشعبية حتى قيام الدولة الوسطى ابتداء من تحذيرات الحكيم ايبور الى نبوءات نفرروهو الى قصة الفلاح الفصيح التى أشرنا اليها فى غير هذا المكان ، على ان صلاح الأحوال يتوقف على ظهور حاكم عادل يعيد الأمور الى نصابها ويقضى على الظلم والفساد ، وقد كان ذلك من اهم الآثار السياسية للثورة الشعبية ، واذا كانت تلك الثورة قد فشلت فى ايجاد نظام مستقر للحكم الا انها نبهت الأذهان الى اهمية الحكم العادل وربطت بين الحاكم او الملك وبين فكرة الاصلاح الاجتماعى خلافا لما كان عليه الوضع فى عهد الدولة القديمة حيث كانت مسئولية الحاكم الاجتماعية لاتثير الانتباه نظرا لاستتباب الأوضاع الى حد كبير ، وكانت النظرة الى ملوك الدولة القديمة مرتبطة فى المحل الأول بالدين ، فكان الملك يقدس باعتباره إلها سواء كان عادلا او ظالما ، ولكن هانحن نرى فى عهد مابعد الثورة مدى ارتباط السلطة بالمسئولية الاجتماعية لأول مرة فى تاريخ الفكر السياسى .

واشد مايتضح هذا الارتباط فى « التعاليم الموجهة الى الملك مريكا رع » من ابيه الملك « أخيتى » الرابع احد ملوك اهناسيا ، وهى تحوى خلاصة فلسفته ومبادئه السياسية لينتفع بها ابنه فى شئون الحكم ، وتحمل هذه التعاليم مسحة واضحة من التواضع والديمقراطية تدل على مدى تغير عقلية الملوك فى عهد مابعد الثورة ، فالمالك لم يعد ذلك الحاكم الجبار المتغطرس الذى يتعين على الجميع ان يدينوا له بالولاء والطاعة العمياء باعتباره ظلا لله على الأرض ، ولكنه اصبح خادما للشعب وراعيا للقطيع كما يأمل الحكيم ايبور .

ان الملك خيتى فى هذه التعاليم ينصح ابنه ان يتجنب الطمع ، ويحضه على الخير والعدل بين رعاياه ليدهم ملكه ، فيقول .

« تحل بالفضائل حتى يثبت عرشك على الأرض
هدىء من روع الباكى
لاتظلم الأرملة
لاتجرد احدا من املاكه
ولا تطرد موظفا من عمله
ولا تغدر بزميل تلقى معك العلم »

ويستطرد قائلا :

« لاتكن فظا بل كن رحيم القلب
اجعل هدفك حب الناس
فالناس سوف يشكرون الله لأنه منحهم اياك
وسوف يمتدحون عهدك ويدعون لك بالصحة »

واكثر من ذلك يدعو الملك ابنه الى عدم التفرقة بين الناس على اساس اوضاعهم الاجتماعية ، فيقول

« لاترفع ابن الرجل العظيم على ابن الرجل المتواضع بل قرب اليك الانسان حسب كفاءته الشخصية »

وهو ينصحه ايضا بأن يهتم بالجيل الجديد من الشباب الذين

ينشأون فى الأحياء المتواضعة ، ويمنحهم العطايا والهبات حتى يكونوا دعامة له فى حكمه ، فيقول :

« ارفع من شأن الجيل الجديد لكى تحبك الرعية

ان المدينة ملآى بالشبان المدربين حديثا الذين هم فى حوالى العشرين من عمرهم .. اجعل من هؤلاء الشبان اتباعك وامنحهم الممتلكات وهبهم الحقول وائتمنهم على القطعان »

ويذكر الملك ابنه مريكا رع بأن مسئولية الحكم ثقيلة ، وانه لايكفى ان يعتمد على وراثته للعرش ، بل عليه ان يتحلى بالحكمة ووسيلته اليها هى القراءة ، والاطلاع على ماخلفه الاجداد من كنوز العلم والثقافة .

وهكذا احدثت الثورة انقلابا شاملا فى الفكر السياسى حيث اصبحت العدالة الاجتماعية مطلبا اساسيا للشعب ومسئولية كبرى على الحاكم . غير ان هذا الانقلاب لم ينحصر فى المجال السياسى وحده بل تعداه الى المجال الدينى فاوجد مايمكن ان نسميه بالديمقراطية الدينية .

الديمقراطية الدينية

عندما دمرت الثورة الشعبية المعابد والمقابر والتماثيل التى اقيمت للعظماء يبدو انها دمرت معها ايضا فكرة ارتباط الجزاء بالماديات ، فعندما عاد الدين الى سلطانه فى النفوس بعد انحسار الثورة بما جرفته امامها من ركام المعتقدات القديمة لم تعد فكرة الجزاء فى العالم الآخر ترتبط بالمظاهر المادية التى تحيط بالمتوفى وانما برزت فضائل المتوفى وحدها باعتبارها الحكم على افعاله لا المقابر التى يشيدها والقرابين التى يقدمها .

هذه الفكرة النبيلة ظهرت لأول مرة فى تاريخ البشرية فى التعاليم الموجهة الى مريكا رع » التى ترجع الى اواخر العهد الأهناسى ، ففى هذه التعاليم نجد هذه العبارة الخالدة :

« فضيلة الرجل المستقيم خير عند الله من ثور يقدمه صانع الآثام »

فهنا اعتراف رائع بالشخصية الانسانية واشراق لتلك الفكرة الصادقة وهي ان الله لايفرق بين البشر طبقا لما يتمتعون به من ثراء او مايستطيعون تقديمه من قرابين ، وانما بالنظر الى فضائلهم وتقواهم ، وهي نفس الفكرة التي قامت عليها كافة الأديان السماوية .

ولأول مرة في تاريخ مصر القديمة تشهد مصر مابعد الثورة على الاقطاع الديمقراطية الدينية ، ففي هذا العصر اكتسب الفرد العادى كافة الحقوق الدينية التي كانت وقفا على الملوك والعظماء ، ويبدو ان الثورة حين قضت على هيبة الطبقة العليا ودمرت مقابر العظماء وتماثيلهم وقر في اذهان الناس ان الملوك والعظماء ليسوا آلهة اقوياء وانما هم بشر ضعاف لايستطيعون حماية قبورهم وتماثيلهم ، ولم يعد هناك مبرر لأن يتمتعوا وحدهم بالحقوق المقدسة وعلى رأسها حق الخلود في العالم الآخر ، واصبح كل انسان من حقه ان يتمتع بالخلود بعد موته . وان يجازى على عمله في الحياة الدنيا بما قدمت يداه من خير او شر لا بما كان يملك من جاه ومتاع .

وحتى الديانة الرسمية السائدة على مستوى الشعب والدولة تحولت من عقيدة رع الى عقيدة اوزيريس ، وكان ذلك دليلا على ان الشعب بدأ يكسب قوة ونفوذا لم يعرفهما من قبل ، وقد كانت عقيدة رع مستمدة من التطلع الى الشمس وعقيدة اوزيريس مستمدة من الحياة في الزراعة والخصب وهكذا يمكن القول بان عقيدة رع هبطت من السماء وعقيدة اوزيريس نبعت من الأرض ، وكانت عقيدة رع اكثر غموضا وتعقيدا وتتطلب قدرا كبيرا من الدراية والعلم لانها تعتمد على التطلع الى السماء ومتابعة حركات الشمس والكواكب

والنجوم ولذلك كانت عقيدة رع هى عقيدة الخاصة ، اما عقيدة اوزيريس فكانت اكثر قربا الى ادراك الناس البسطاء لأنها اسطورة جميلة واضحة تستمد مغزاها من الصراع اليومى الظاهر بين الخير والشر ، ولايحتاج فهمها الى عقليات مدربة تدريبا خاصا . ولذلك كانت اكثر قربا الى قلب الشعب .

والى جانب ذلك كانت عقيدة رع « باهظة التكاليف » اذ ان الذى يتمتع بمملكة رع بعد الموت هو من يستطيع الاحتفاظ بجسده المادى رغم عوامل الفناء مما كان يتطلب امكانيات كبيرة لايقدر عليها الفرد العادى كبناء مقبرة منيفة تصمد لعوادى الزمن ، وتكديس الأوانى والأطعمة والتماثيل ليستخدمها المتوفى فى العالم الآخر وقد يتطلب الأمر ايضا وجود عدد من المراكب الجنازية ليستخدمها المتوفى فى رحلته وراء مركب رع فى العالم الآخر ، كل هذه الأمكانيات والمستلزمات لم يكن يقدر عليها بالطبع سوى الملوك والعظماء واصحاب اليسار ، اما عامة الشعب الذين لايقدرون على تكاليفها فمن الطبيعى ان يحرموا من مملكة رع فى العالم الآخر اى انها كانت مملكة ارستقراطية بمعنى الكلمة .

ولذلك فان انتصار ديانة اوزيريس بعد الثورة يعد دليلا على ظهور قوة الشعب وقدرته على الضغط فى سبيل تحقيق الديمقراطية الدينية فهذه الديانة ليست وقفا على الاثرياء واصحاب النفوذ والجاه بل هى تكافىء المحسن باحسانه ، وتعاقب المسىء باساءته دون اعتبار لجاه او نفوذ ، والمحكمة التى يراسها اوزيريس فى العالم الآخر والتى تزن قلب الميت امام ريشة العدالة « ماعت » خير دليل على ذلك .

وهكذا اصبحت مملكة الله تتسع لأول مرة للغنى والفقير ، والقوى والضعيف ، والعظيم والبسيط ، دون تفرقة بينهم إلا باعمالهم ، وكان من الطبيعى ان تنعكس هذه الفكرة الديمقراطية

عن العالم الآخر على الحياة الدنيا كذلك ، وهكذا اصبحت الديمقراطية الدينية هى اساس الديمقراطية المدنية او المساواة بين البشر .

يقول رع فى احد نصوص التوابيت :

« لقد خلقت الرياح الأربعة من اجل ان يستطيع كل انسان ان يتنفس مثل اخيه » ..

« وخلقت الأنهار العظيمة كى يستخدمها الفقير والسيد العظيم ..

« وجعلت كل انسان مثل اخيه ، ونهيتهم عن فعل الشر ، ولكن قلوبهم هى التى لم تفعل ما امرت به »

هنا نجد آثار المساواة التامة فى حق الحياة بين البشر ، وليس غريبا ان تكون دعوات المصلحين الاجتماعيين قد اثمرت وادت الى اقرار حق الشعب فى المعاملة الطيبة ، والى بث افكار العدالة والديمقراطية فى الفكر السياسى والدينى وارغام الحكام والملوك على احترام حقوق رعيتهم والعدل بينهم ، وقد رأينا فى التعاليم الموجهة الى مريكا رع كيف كان الملك ينصح ابنه بالعدل بين الرعية وعدم التفرقة بين الناس بسبب ثرائهم او جاههم وكان ينصحه قائلا :

لاترفع ابن العظيم على ابن الرجل البسيط ، ولكن قرّب اليك الرجل حسب كفاءته الشخصية »

وعندما قامت الدولة الوسطى كانت فكرة العدل الاجتماعى قد استقرت تماما واصبح ينص عليها فى مراسيم تعيين الوزراء انفسهم يقول احد هذه المراسيم الملكية :

« انظر .. ان الوزراة ليست حلوة

انها مرة

ان الوزير هو النحاس الذى يغطى ذهب سيده

انظر .. ان الوزارة ليست مجرد اظهار الاحترام للأمراء

والمستشارين ، وليس معناها ان يصنع الوزير لنفسه عبيدا من الناس

انظر .. عندما يأتي اليك صاحب شكوى من مصر العليا او مصر السفلى او من اى مكان في البلاد عليك ان تراعي ان كل شيء يجرى طبقا للقانون والعرف المتفق عليه ، وان تعطي لكل رجل حقه ، لان كل ما تفعله لايمكن ان يبقى في طي الكتمان .

ثم يمضي المرسوم في ابلاغ الوزير تفصيلا كيف تكون تصرفاته حيال القضايا المختلفة التي تعرض عليه ، ويحذره من الاقدام على الظلم لاى سبب من الاسباب حتى لو كان غرضه من ذلك الظهور بمظهر العدل ، فهو يحذره من خطأ وقع فيه وزير قديم من عصر الاقطاع يدعى خيتي ، فيقول :

« احذر مافعل الوزير خيتي ، لقد قيل انه ظلم اناسا من اقاربه لصالح قوم غرباء خشية ان يقال عنه انه ارضى اقاربه بدون وجه حق »

ويمضي المرسوم الملكي يأمر الوزير قائلا :

« ارع الذى تعرفه تماما كالذى لاتعرفه ، والذى هو قريب منك كالذى هو بعيد عنك »

وهكذا تحقق حلم المصلحين الاجتماعيين بملك عادل يستخدم عمالا عادلين .. تحقق حلم ايبور .. ونفر روهو .. والفلاح الفصيح خونانوب ، وتحققت احلام الشعب في العدالة الاجتماعية والمساواة والحقوق الدينية مع عودة الامور الى الاستقرار بعد اول ثورة شعبية في التاريخ ضد مظالم الاقطاع .

● ● ●



لم يكونوا مجرد عبدة أوثان !

لعل من أكبر المطاعن التى توجه إلى مصر القديمة انها لم تعرف الاله الحق وإنما عبدت خليطا من الآلهة والربات من ذوى الأصول الكونية او الحيوانية أو البشرية . وإن المصريين القدماء كانوا يعبدون الأصنام ، أو كما أعرب أحد المثقفين الذين دخلت معهم فى معركة فكرية منذ ربع قرن عن عجبه واستنكاره لدفاعى عن الحضارة المصرية والتاريخ الفرعونى بدعوى أن « المصريين القدماء كانوا امة بائدة من الوثنيين ولا يستحقون بالتالى شرف التقدير أو مئونة الاهتمام بهم إلا بمقدار ما تستحق ذلك قبائل الكفرة من عرب الجاهلية قبل الاسلام !

وحسب هذا « المثقف » انه أرضى ضميره وعمل ما عليه دفاعا عن « العروبة والاسلام » فى مواجهة دعاة « الفرعونية الحديثة » الذين تنكبوا الطريق وضلوا عن « القومية العربية » !

والحق أن شبهة الوثنية والكفر من اشد ما ألحق جهلا بالمصريين القدماء ، وهى شبهة محقت فى أعين الكثيرين كل الأمجاد التى حققها المصريون الأوائل فى السياسة والفكر والصناعة والحرب وكل ألوان الحضارة . واتذكر فى هذا المجال ما كتبه المرحوم الدكتور حسين فوزى فى كتابه « سندباد مصرى » حين كان فى معية احد الأمراء الشرقيين فى زيارة للمتحف المصرى ، إذ التفت الأمير الزائر إلى تمثال فرعونى وسال مستنكرا : « هل هذا فرعون ؟! » فلما أجيب بالايجاب بصق الامير على التمثال واشاح عنه بوجهه قائلا : « إذن هذا كافر ؟! »

ولكن هذه الشبهة غير صحيحة على إطلاقها ، ولا يصح أن يوصف المصريون القدماء بالكفر قياسا على ما بلغه الفكر الدينى من الرقى فى ضوء الرسالات السماوية اللاحقة ، فالدين كما أوضح المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد خضع لمبدأ التطور ، وكان من المحال على الشعوب البدائية أن تصل فى الفكر الدينى إلى منتهاه التوحيدى فى زمنها ، فالعقل البشرى لم يكن قد بلغ مرتبة تؤهله لذلك بل كان مازال فى طور الطفولة الذى تناسبه الأساطير والمحسوسات بقدر عدم قدرته على التجريد وإدراك المعنويات .

على أن المصريين القدماء قطعوا رغم ذلك شوطا كبيرا على الطريق الصحيح نحو معرفة الله الحق واستشراف جانب كبير من الأفكار الرئيسية التى جاءت بها الأديان السماوية فيما بعد ومنها فكرة الحساب فى العالم الآخر ووزن الحسنات والسيئات ، والجزاء تبعا لذلك بالجنة أو الهلاك ، وهى الفكرة الأساسية فى كل الأديان بعد فكرة وحدانية الخالق ، وهذه أيضا استشرفها المصريون القدامى خاصة فى تجربة اخناتون . وعلى ذلك رايت ان اقسم هذا البحث إلى ثلاثة اجزاء اساسية :

١ ـ مبدأ التعددية الوثنية الذى شاع فى الفكر الدينى المصرى .

٢ ـ فكرة وحدانية الإله التى دعا إليها اخناتون .

٣ ـ الأفكار الأساسية عن خلود الروح وخضوعها للحساب عن أعمالها فى العالم الآخر .

ومرجعى الأساسى فى هذه الأبحاث كتاب THE East when egypt ruld الذى قمت بنقله إلى اللغة العربية مؤخرا ، ولم يظهر بعد فى طبعته العربية .

★ ★ ★

أولا : التعددية الوثنية لدى المصريين القدماء :

تصور الإنسان القديم أن الإله مرتبط بالاقليم الذى يعبد فيه ويجب أن يرجع إليه باعتباره الحامي لهذا الإقليم كالسيد الاقطاعي في منطقته . وهذا وضع طبيعي في سلم التطور ، فالناس لم يصلوا إلى نظرة كونية عالمية بعد ، وإنما كل عالمهم إقليمهم الذى يعيشون فيه .. مشاعر العبادة لديهم صادقة ، ولكنها محدودة ، فلا ينبغي ان يطلب من إنسان محدود أن يفكر في اللامحدود ، وإنما من المفهوم أن يكون تفكيره محدودا بظروفه .

وهكذا عبد كل إقليم إلهه الخاص به ، ولم يتدخل في شئون الإقاليم الأخرى ، فكل إقليم وشأنه الخاص في عباداته ، وهناك تعايش سلمى بين الآلهة المختلفة كالتعايش السلمى بين الأقاليم ، مما جعل في الوثنية سماحة فكرية لم تعرفها الديانات التوحيدية فيما بعد .

وكانت صلاحية كل إله مقصورة على المدينة او الأقليم الذى يعبد فيه ولا يملك اية قوة خارج حدود منطقته ، وكثيرا ما لم يكن الإله له اسم خاص وإنما يحدد بالإشارة إلى المكان الذى يعبد فيه ، ففي امبوس يشار إليه باسم « اللامبوئى » وفي إدفو يسمى « الأدفوى » ، ولكن كانت هناك أحيانا أسماء محددة للآلهة لا نعرف معناها على وجه الدقة ، ففي منف يدعى الإله « بتاح » وفي طيبة « منتو » وفي قفط « مين » وفي عين شمس « رع » و « أتوم » ، بالإضافة إلى اسماء أنثوية مثل « صخور » في دندرة و « نيث » في سايس و « سخمت » في منف . ويضمها جميعا مجمع الآلهة « البانيثون » .

وبالطبع ترتبط قوة الإله بمدينته ، فإذا قوت المدينة وتوسعت ازداد إلهها قوة وانتشارا حتى ظهرت الآلهة القومية التى لا يقتصر نفوذها على المنطقة التى ظهرت فيها . وهكذا عندما صارت مصر

تتكون من مملكتين (مصر السفلى ومصر العليا) أصبح حورس هو الإله القومى لمصر السفلى ومقره « بيديت » ، وصار ست إله مصر العليا ومقره « أوميوس » ، وتعكس أسطورة أوزيريس والمعارك التى قامت بين حورس وعمه ست ذكرى الحروب والصراع الطويل بين الشمال والجنوب لتحديد من له السيادة عن الأرضين .

ولم تكن الحروب هى الوسيلة الوحيدة لانتقال الآلهة من مناطقهم ، بل كان ذلك يتم سلميا أيضا ، فقد يحدث أن يهاجر سكان منطقة ما إلى منطقة جديدة فيحملوا معهم إلههم المحلى ، أو يفتتن سكان منطقة ما بقوة إله اجنبى فى حماية جماعته أو وفرة الخيرات التى يسبغها عليهم فيقوموا بالحجيج إليه فى ضريحه ويقدموا له القرابين أو يقيموا له معابد جديدة حيث يقيمون وبهذه الطريقة ينتقل الإله أحيانا إلى مدينة لم ينشأ فيها أصلا ويغتصب مركز الإله المحلى فيها ويصبح هو الرب المعبود للمينة . وهكذا حصلت « نيت » ربة سايس على ضريحها فى إسنا ، وعيد خنوم وموطنه الأصلى هيبسيس فى انينوى واسنا والفانتين .

وكان يحدث أن يشتهر إله محلى بصفة معينة فتمتد شهرته وعبادته فى طول البلاد وعرضها بهذه الصفة ، فالإله « مونتو » ذو رأس الصقر أصبح إلها للحرب ، والإله « مين » إله قفط صار إلها للمسافرين فى الصحراء و « بتاح » إله منف حيث نشأ الفن المصرى المميز صار سيدا لكل الفنانين وعمال التعدين والحدادين ، و « تحوت » إله هرومويوليس نسبوا إليه اختراع الكتابة الهيروغليفية وأصبح إلها للمعرفة وربا للكلمات المقدسة والحكمة ، أما الإله التمساح « سوبك » فكان من الطبيعى اعتباره ربا للماء فى كل مكان .. وهكذا .

وكانت الآلهة المحلية تتزاور فيما بينها وتعقد الصداقات طبقا للزيارات والصداقات التى يأتيها سكان الإقليم الذى تعبد فيه .

وكانت الآلهة مثل الناس تتزاور فيما بينها فى أيام معينة ، وكثيرا ما كان الأرباب الغرباء يحصلون على أمان خاصة بعبادتهم فى معبد إله المدينة الأصلى ويحيطون به يشاركونه المدائح والعطايا التى يقدمها عباده .

وأجهد الكهنة انفسهم فى عقد الروابط والعلاقات بين الآلهة المختلفة تحقيقا لمنافع كثيرة يرجونها من وراء ذلك ، لذا لم يكن من النادر أن يعترفوا بربة ما كزوجة للإله الرئيسى فى المدينة ويضيفوا إليهما إلها ثالثا كابن لهما فمثلا نجد فى الكرنك بطيبة الإله الرئيسى امون تشاركه فى العبادة زوجته الربة « موت » وابنهما إله القمر « خونسو » ، وفى منف حصل الإله « بتاح » على « سخمت » كزوجة له و « نفرتم » ابنهما ، وفى أبيدوس كان يوجد أوزيريس وزوجته إيزيس وابنهما حورس كثالوث أو أسرة مقدسة .

وكثيرا ما كانت الآلهة تصور فى شكل حيوانى بحث ، فالإله سوبك فى صورة تمساح ، والإله منديس فى صورة كبش ، وتحوت فى صورة الطائر إيبس ، وخنوم فى شكل كبش ، وحورس فى شكل صقر أو نسر ، وخصمه ست فى شكل وحش خرافى ، والربة الحامية لبوتو كانت ثعبانا ، وربة انخاب مثل الربة مون فى طيبة أعتبرت نسرا بينما حتحور ربة دندرة اخذت شكل البقرة .

وليس ذلك دليلا على أن الفراعنة كانوا يعبدون هذه الحيوانات فى حد ذاتها ، وإنما هذه الأشكال مجرد رموز للآلهة للتعريف بها وكأثر باق من اثار الطوطمية فيما قبل التاريخ ، وهذا شىء لم تنج منه جميع الشعوب البدائية ، فالساميون الأوائل كانوا يقدسون الأشجار والأحجار والحيوان ، ونعرف من الأساطير الإغريقية كيف تجلى هرمس فى هيئة كومة من الأحجار وأبوللو فى شكل ذئب وزيوس فى سحابة وارتميس كدب وهيرا كبقرة ويعرف كل دارس للميثولوجيا الكلاسيكية أن « الحيوان المقدس » لأثينا هو البومة ، ولزيوس النسر .

غير أنه عندما تدهورت الحضارة المصرية فى أواخر أيامها ، فقدت هذه الرموز طابعها الرمزى ، وأصبحت فى ذهن البسطاء تدل على الحقيقة فى حد ذاتها ، فصاروا يعبدون ضروب الحيوان لذاتها وليست كرموز لقوى عليا مجهولة ؛ وهو ما لاحظه الإغريق والرومان الذين عرفوا مصر فى عصور اضمحلالها الأخيرة ، وسمحوا لأنفسهم بحرية التعبير عن احتقارهم وسخريتهم إزاء مثل هذه الأفكار الدينية البدائية التى يعتقد فيها المصريون .

ففى المرحلة المتأخرة حين فقدت الديانة المصرية القديمة كثيرا من حيويتها الداخلية وأصبح الناس متعلقين بقشورها الخارجية فحسب ، تطرفوا فى عبادة الحيوان إلى حد أنهم كانوا يعتبرون كل حيوان مفرد يفترض أن الإله يظهر فى شكله مقدسا ومعبودا ، وكانت هذه الحيوانات تعتبر حصينة وقتل أى منها فى مكان عبادته جزاؤه الإعدام ، وبلغت الحماسة الدينية فى تلك الفترة أقصاها بحيث أصبح من المعتاد تحنيط كل واحد من الحيوانات المقدسة عند موته ودفنه باحتفال فى جبانات خاصة مكرسة لهذا الغرض .

وقد اتخذت خطوة متقدمة عن الفيتشية الفجة فى عصر ما قبل التاريخ عندما بدأ المصريون يصورون إلهتهم فى شكل آدمى ، ففى ذلك الوقت أصبح للإله شكل آدمى ، ويرتدى نفس الملابس التى يرتديها المصريون وقد يحتفظ بشكله التوتمى فى منطقة الرأس فحسب ، فأصبح سوبك رجلا له رأس تمساح ، وخنوم رجلا له رأس كبش ، وتمثل تحوت فى شكل إنسان له رأس الطائر إيبيس ، وحورس له رأس صقر ، بينما سخمت أصبحت امرأة لها رأس لبؤة .

★ ★ ★

الهة الطبيعة

وبالإضافة إلى الآلهة المحلية التى يقتصر نشاطها على نطاق محدود فوق الأرض كانت هناك آلهة عظيمة أخرى تعبر عن قوى الطبيعة وتشمل العالم كله مثل السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والنيل ، فالسماء كانت « الرب الأكبر » وتصوروها فى شكل صقر ينشر جناحيه الحامين على الأرض اى مصر ، وعيناه المقدستان هما الشمس والقمر عندما يفتح أحداهما يكون النهار وإذ يغلقها ويفتح الأخرى يأتى الليل . والنجوم متصلة بجسمه ، والريح هى أنفاسه ، والماء عرقه ، ونشات عديد من المعتقدات والأساطير تحاول ان تفسر بدء الخلق وقوى الطبيعة .

ومال تطور الأفكار الدينية عموما إلى إيجاد نوع من العلاقة بين الآلهة المحلية وقوى السماء والطبيعة ، فقد كان الكهنة ينتهزون كل فرصة ممكنة لرفع شأن أربابهم المحلية ، وهكذا أصبح الصقر حورس الذى تحول عندئذ إلى إله قومى موحدا مع إله السماء الذى كان يعتبر صقرا أيضا باسطا جناحيه وتسمى حور ـ اختى اى « حورس الأفق » بالإضافة إلى ذلك تم توحيده مع « رع » وأصبح بمثابة إله الشمس رع ـ حور ـ أختى . وكانت النتيجة الطبيعية أن حصل رع أيضا على شكل حورس وطبقا لذلك صوروه كملك فى هيئة بشرية برأس صقر يحيط بها قرص الشمس مع ثعبان الصل على جبينه .

وبنفس الطريقة اصبحت الآلهة المحلية الأخرى مرتبطة بالشمس وحصلت بالتالى على قرص الشمس والصل المقدس كعنوان للتميز مع احتفاظها بكل سماتها القديمة ، ونسجت الأساطير لتفسير هذا التزواج أو الاقتران ، وأصبحت النتيجة الحتمية هذا الارتباك الهائل فى الأفكار المتشعبة بل والمتناقضة فى الديانة المصرية ، وبذلت جهود فى الديانة للتمييز على الأقل بين مختلف آلهة الشمس بعضها

والبعض ، فأسندت وظيفة معينة لكل منها ، وطبقا لذلك أصبح « خبرى » ـ إله الشمس فى شكل جعران ـ بمثابة شمس الصباح ، وعبد « أتوم » باعتباره شمس المساء ، وهكذا ... ومع ذلك لا يبدو أن الكهنة المتعلمين قد نجحوا مطلقا فى وضع نظام شامل للديانة المصرية أو جاءوا بتفسير واضح لتخبطها .

تعقيدات الكهنة

بل إن الكهنة انفسهم كانوا يستفيدون شخصيا من هذا الاضطراب الهائل فى الديانة والعقائد ، إذ تمس فى هذه الحالة الحاجة إليهم ليقوموا بمهمة الشرح والتفسير والطقوس المختلفة لكل إله لقاء أجر مادى يتلقونه من العابدين الاتقياء :

وبالتاكيد لم يكن من العسير على أى عقل ذكى أن يتوصل بشىء من الصفاء والجهد والتجرد إلى نتيجة منطقية هى أن عبادة مجموعة صغيرة من الأرباب أو حتى إله واحد هى الأجدر بالاتباع دون هذا الخليط الشائه من المعبودات المتناقضة ، ولكن من ذا الذى يملك الشجاعة لوضع هذه النظرية موضع التطبيق ويركن على الرف العبادات القديمة ويستبدل مكانها عبادة جديدة ؟ إن مثل هذا العمل كان من شأنه ان يثير عليه كل كهنة مصر دفاعا عن حقوق آلهتهم وامتيازاتهم الخاصة هم أنفسهم ، وأكثر من ذلك كيف كان يمكن للكتلة الكبيرة من الشعب التى تنظر باحترام بالغ للآلهة القديمة لمواطنها وليست لديها أدنى مصلحة فى تحقيق النظام الدينى أن تتلقى إعلانا بأن سلطة إلهتها الحامية قد زالت وحل محلها إله آخر عليهم أن يتقدموا له بصلواتهم وقرابينهم ؟

★ ★ ★

ثانيا : توحيد أخناتون

ومع ذلك ، ورغم كل الصعوبات والمخاطر ، عرف تاريخ الفكر الديني المصرى ذلك الإنسان الشجاع الذى يعنى حقيقة الوحدانية بصراحة وقوة غير أبه بما يجره عليه ذلك من مشاكل وتعقيدات .

ذلك الإنسان هو اخناتون الذى وصفه كثير من المؤرخين بإمام الموحدين وأول من دعا إلى وحدانية الخالق وكفر بتعدد الآلهة .

ولم يكن اخناتون رجلا عاديا وإنما كان فرعونا يجلس على عرش اباثه واجداده فراعنة الأسرة الثامنة عشرة الذين فتحوا معظم اجزاء العالم المعروف آنئذ ، وكونوا امبراطورية مصرية تمتد من أعماق النوبة إلى أعالى الفرات ، وتدفقت المغانم والثروات عليهم حتى بلغت مصر فى عهدهم قمة الثراء والقوة بما يتبعه ذلك الترف والوثوق بالذات من الرغبة فى المحافظة على الوضع الراهن مادام يتيح كل هذا المجد وهذه السعادة .

غير أن اخناتون الذى كان يدُعى امنحتب الرابع رفض كل ما يتيحه هذا الوضع من مجد وفوائد مادام أنه قائم على الزيف المتمثل فى تعدد الآلهة .

ومن المؤكد ان الجذور الأولى لوحدانية اخناتون ترجع إلى التعليم الذى تلقاه صغيرا فى هليوبوليس (اون) ، فقد كان كهنة أون يرون ان إله الشمس هو أعظم الآلهة وهو الخالق والحافظ للعالم ، وليس له كفؤا احد ، وإنه ليس معبودا عاما فحسب بل المعبود الوحيد للناس ، وإن الآلهة الأخرى ليست أكثر من أشكال أو تجليات لإله الشمس نفسه ، كان هذا اعتقادهم من الأزل (مما يدل على رسوخ فكرةِ الوحدانية فى الديانة المصرية) وزادت الفكرة رسوخا لديهم نتيجة للقوة الساحقة التى تمتع بها إله الشمس (رع) منذ أقدم العصور ، وخاصة فى زمن الدولة القديمة أعظم مرحلة فى تاريخ

مصر ، غير أن كهنة أون صدموا بما تدهورت إليه أحوالهم في زمن الدولة الحديثة أو بالتحديد في عهد الأسرة الثامنة عشرة التي تعبد « آمون » إله طيبة وتنسب إليه وهذا طبيعي ـ الأمجاد والفتوحات التي تحققت في عهدها ، ونتيجة لذلك ارتفع « آمون » إله طيبة الذى كان منذ أمد قصير لا يتجاوز قرنا من الزمان إلها محليا غامضا إلى مرتبة ملك الآلهة والإله الرئيسى للامبراطورية المصرية العالمية ، وترتب على ذلك ـ وهذا طبيعي أيضا ـ انهيال الهدايا على كهنة آمون الطموحين ، فأحرزوا الثروات الضخمة والأوقاف الزراعية الهائلة والنفوذ الأعلى لدى البلاط وفي البلاد ، كل هذه الأشياء أثارت حسد وغضب وكراهية كهنة « آمون » القدماء ، واعتبروا أن كل قطعة أرض يكسبها آمون تمثل في المقابل انتقاصا من ملكية رع وثروته وكل هيكل يقام لآمون يمثل خسارة في قوة إله الشمس ونفوذه ، ومن المحتمل أن أخناتون في شبابه المبكر شارك في الدائرة الداخلية لعبادة هالة الشمس « آتون » وصار الكاهن الأعلى لهذا الإله قبل أن يشترك في الحكم مع أبيه .

وفور تتويج امنحتب الرابع مشاركا في الحكم مع أبيه أقدم على الدعاية للإله الجديد أتون (قرص الشمس) في كل أنحاء البلاد ليجعله إلها مركزيا عاما في تحد واضح لإله آبائه « آمون » فأعلن نفسه صراحة في السجلات الرسمية « الكاهن الأول » لآتون ، وأمر بأن يقام له معبد جديد بديع في طيبة بجوار معبد آمون بالكرنك ، كما أقيمت المعابد لآتون في منف وغيرها من المدن ، ولكن ظل هناك شيء ينتقص الإله الجديد وتتمتع به غالبية الآلهة القديمة منذ أقدم العصور ، ذلك هو تخصيص إقليم لعبادته هو وحده يحكم فيه كسيد ويعبده فيه سكانه باعتباره حاميهم الأكبر ، وهكذا أصدر امنحتب الرابع في السنة الرابعة من حكمه ـ أى في مرحلة مبكرة من

مشاركته في الحكم مع أبيه - مرسوما بتخصيص مكان لعبادة آتون في السهل المستوى الكبير الذى يعرف الآن باسم « العمارنة » نسبة إلى القبيلة البدوية التى سكنت فيه في العصر الحديث ، ويقع في منتصف المسافة تقريبا بين طيبة ومنف ، وأطلق على الاقليم الجديد اسم « اخيتاتون » أى « أفق آتون » ، وأصبح بمثابة ملكية شخصية للإله الجديد بكل مدنه وقراه وحقوله وقنواته وقطعانه وفلاحيه ، ولم يكن هذا الإقليم مخصصا لأى إله أو إلهة أو امير او أميرة ، أى لم يعبد فيه إله آخر من قبل .

واقدم كل اتباع الملك وخدمه وموظفوه على الاقتداء بسيدهم فاعتنقوا العقيدة الجديدة رغم أنها لم تدخل شغاف قلوبهم ، ولكن بغض النظر عن الحمية التى ابداها امنحتب الرابع لإلهه إلا انه لم يقدم في أول الأمر على الوصف بعبادة أمون وغيره من الآلهة القديمة . ولكن الأمر لم ينطل على كهنة البلاد فجابهوه باشد المقاومة وخاصة كهنة آمون في طيبة الذين كانوا يدركون تماما ما وراء ذلك من انتقاص لقدرهم وانتكاس لمركزهم وضمور لأرباحهم ، فقاوموا هذا الاتجاه الجديد باقصى ما يستطيعون ، ولكن هذه المقاومة لم تثبط الملك الشاب بل واصل إدخال عبادة ربه في شتى انحاء البلاد ، وفي الحقيقة كانت هذه المقاومة بمثابة مهماز يثير حميته الدينية يدل على ذلك انه اقرن اسمه الرسمى بعبارة « الذى يحيا على الحقيقة » وهذه ليست عبارة جوفاء وإنما تشتمل على عقيدة راسخة فحواها أن عقيدته وحدها هى الحقيقة وغيرها ما هى إلا عقائد زائفة ، ثم اتبع الباحث عن الحقيقة تعاليمه إلى نتائجها المنطقية ، فإذا كان جميع الأرباب مجرد تجليات مختلفة لنفس الإله إذ يجب إدماجهم جميعا فيه حتى يكون الإله الواحد « أتون الحى » هو محل العبادة الوحيد .

وهذا ما أعلنه صراحة فى السنة السادسة من حكمه فقد قرر أن تكون عبادة أتون هى الديانة الرسمية للدولة فى كل أنحاء الامبراطورية بما تضمنه من آسيويين ونوبيين وأمر بإغلاق معابد الآلهة الأخرى فى كل مكان ومصادرة ممتلكاتها وتدمير تماثيل الآلهة القديمة ومحو صورها من نقوش المعابد وإزالة أسمائها تماما . وتركز الاضطهاد الشديد على آمون وعائلته ليس فقط فى المعابد بل حتى فى غرف المدافن الخاصة كلما كان هناك سبيل لدخولها ، وحرم استخدام اسم « آمون » بالتحديد ، فكل من يحمل اسما يحتوى على لفظة « آمون » أجبر على تغييره ، وكان الملك نفسه أول من فعل ذلك فتخلى عن اسم امنحتب (آمون راضى) الذى أعطى له عند مولده وأسمى نفسه أخناتون (المفيد لآتون) وحتى اسم أبيه امنحتب الثالث وسلفه امنحتب الثانى كانا يمحيان من على الآثار لأنهما يحويان ذكر آمون البغيض .

وبعد ذلك قرر أخناتون أن يجعل « أخيتاتون » مقره الدائم فى المستقبل ، فإن العاصمة القديمة طيبة بارتباطها الطويل بآمون لم تعد المكان المناسب الذى يمكن أن تمارس فيه عبادة الإله الجديد بما تتطلبه من هدوء وحماسة ، وشمر أخناتون واتباعه عن سواعد الجد لبناء وتعمير المدينة الجديدة بما تضمه من قصور ومعابد وحدائق ومقابر ، وبعد سنتين فقط تمكن أخناتون من القيام بجولة احتفالية لافتتاح المقر الجديد لحكمه ، فطاف بكل أنحاء المقر المقدس لآتون فى عربته المذهبة ، وكان يتوقف لدى كل نصب كبير على الحدود ويقسم أن لا يبرح هذه الحدود إلى الأبد .

* * *

مدينة أخيتاتون

وفى العام السادس من حكمه انتقل اخناتون إلى العاصمة الجديدة « اخيتاتون » واتخذ مقره فى القصر الرائع الذى أقامه بالقرب من النيل ، وكان المعبد الرئيسى لآتون متصلا اتصالا وثيقا بالقصر الملكى . وفى المنطقة الجنوبية من المدينة أقام الملك لنفسه وزوجته نفرتيتى وابنتهما الكبرى مريتاتون حديقة ساحرة كبيرة مزودة بالبحيرات الصناعية وأحواض الزهور وأجمات الأشجار وأنواع أخرى من المبانى منها جناح صيفى ومعبد صغير لآتون ومنازل للحراس ، وخطط بنفسه المدينة الجديدة بما فيها من الأحياء الراقية التى تشقها الشوارع العريضة تقوم على جانبيها فيللات كبار المسئولين والحاشية وأحياء شعبية يفصلها عن بقية المدينة سور وتتميز بالحارات الضيقة والبيوت الصغيرة حيث يقيم العمال الذين يحتاج إليهم العمل فى إنشاء القصور والقبور .

فى هذه المدينة الجميلة المكرسة للإله الواحد « آتون » عاش اخناتون بعد أن قام بهجرته الأبدية من طيبة ، وهناك عكف على عبادة إلهه الواحد الأحد خالق كل شىء والمهيمن على كل شىء والذى تسير المقادير والأحداث بقوته ومشيئته وتشمل قدرته كل ما فوق الأرض وتحت السماء ، فماذا كان يقول فى صلواته ؟

★ ★ ★

أنشودة اتون

إن أفضل إجابة على هذا السؤال قد نجدها في أنشودة الثناء الكبيرة المنقوشة على جدران مقبرة « آى » والتى من المحتمل أن يكون واضعها هو الملك نفسه ، وفيها يمجد أخناتون إلهه أتون باعتباره الإله الوحيد الأوحد خالق كل أشكال الحياة وصانع العالم وحاميه

تقول بعض فقرات الأنشودة :

« إنك تتجلى في أفق السماء
يا آتون الحي يا من كنت أول الأحياء
إنك تطلع في الأفق الشرقي وتملأ كل الأرض بالجمال
إنك لجميل وعظيم وباهر ورفيع في كل مكان
إن أشعتك تحتضن الأرض إلى آخر حدود ما صنعت »

ثم تمضى الأنشودة فتتحدث عن أثر آتون في مخلوقاته واحتفاء هذه المخلوقات به رغم اختلاف أجناسها وأنواعها :

« عندما تظهر في الفجر وتشع في فلك النهار
فإنك تطرد الظلام وتبث أشعتك
عندئذ يبتهج القطران ويصحو الناس لأنك أيقظتهم .
إنهم يغسلون أطرافهم ويرتدون ثيابهم
ويرفعون أيديهم ثناء عليك لأنك أشرقت
وتنشغل كل مخلوقات الأرض في أعمالها
الوحوش تمرح في المراعى
والأشجار والنباتات تزهو بخضرتها
والطيور تندفع من أعشاشها وأجنحتها تخفق بمدحك
وتهب كل المخلوقات المتوحشة على أقدامها
وكل ماله أجنحة يطير ويعيش »

ولا تقتصر مقدرة آتون وأفضاله على المخلوقات الظاهرة وإنما هى تشمل ما لا يرى وما هو فى دور التكوين :

« الأسماك فى النهر تقفز امام وجهك
واشعتك تنفذ إلى أعماق البحر
انت تشكل الأطفال فى الأرحام وتخلق النطفة فى الرجل
انت تحيى الابن فى بطن أمه
وتهب إليه الهدوء فيكف عن البكاء
وعندما يحين مولده يخرج من الرحم ليتنفس
ثم تفتح له فمه وتمده بكل ما يحتاج إليه
وعندما يتشكل الكتكوت داخل البيضة
تعطيه الأنفاس داخل البيضة ليقيم اوده
وانت قدرت له الوقت الذى يخرج فيه من البيضة .
حتى يخرج من البيضة ويصوصو »

تمضى الأنشودة فتعدد الأشياء التى صنعها الإله الأوحد آتون » ، وهى كل ما تقع عليه العين من نبات وجماد وحيوان امم وبلاد :

« ما أكثر الأشياء التى صنعتها !
انت صنعت الأرض طبقا لإرادتك عندما كنت وحيدا
وخلقت البشر والماشية والوحوش وكل مايسير على الأرض بقدميه
وكل ما يعتمد على جناحيه ليطير
والبلاد الأجنبية فى سوريا وكوش ارض مصر
ووضعت كل إنسان فى مكانه وتكفلت له بحوائجه
اعطيت له رزقه إلى أن تحين ساعته

ولا تقتصر قدرة آتون على الخلق وإنما هى أيضا وراء وظيفة حركة الأشياء بمعنى انه المسير لكل شىء بإرادته وتدخله المباشر :

« انت ميزت بين الأمم

وخلقت النيل فى العالم الآخر
وانزلته إلى الأرض طبقا لإرادتك
كى يحيا عليه الناس أيها الرب الأوحد .
وكل أرض بعيدة ضمنت لها الحياة
أنت جعلت النيل ينزل عليهم من السماء
فيروى أراضيهم ويحضر إليهم كل ما يرغبون فيه
وانت صنعت السماء البعيدة كى تشرق فيها
وتنظر من عليائها إلى كل ما صنعت
بينما تتالق فى مظهرك كاتون الحى
أنت تلمع وتتالق بعيدا جدا ولكنك قريب
وانت صنعت ملايين الأشكال من جوهرك الفرد
المدن والقرى والحقول والطرق والأنهار
كل عين تراك أمامها فى كبد النهار وانت تشرق على الأرض »

هكذا كانت النظريات الرئيسية للعقيدة الجديدة تقدم أتون باعتباره الخالق والمنظم والحاكم ليس للإنسان وحده وإنما لجميع المخلوقات ، وليس لمصر وحدها وإنما للعالم كله ، إنه ملك الكون ، ولذا فإن اسمه ، كاسم فرعون ، كان يوضع فى خرطوش تحف به سلسلة من الألقاب كالملك ، ومنها مثلا « أتون الحى . رب كل ما تحيط به الشمس . الذى ينير مصر . رب أشعة الشمس »

★ ★ ★

وحدانية قاصرة

غير أن العقيدة الجديدة رغم ارتكازها على الوحدانية إلا انها كانت وحدانية مادية تفتقر إلى الكثير من التجريد الذى عرفته الديانات الوحدانية السماوية ، كما شابتها أخطاء كثيرة وقع فيها اخناتون ، وله العذر فى ذلك باعتباره رائد فكر جديد يفتقر إلى التجارب الكافية .

أما عن مادية الوحدانية الجديدة فإنها وإن كانت قد حرمت تصوير الإله فى شكل بشر ومنعت أية صورة لآتون إلا انها وجهت العبادة نحو الأشعة المرئية المنطلقة من قرص الشمس ، وهى فى ذلك لا تختلف كثيرا عن عبادة رع القديمة . وهذه الأشعة كانت تصور فى النقوش كأنها منطلقة من محيط قرص الشمس على هيئة اشعة طويلة تنتهى بأيد بشرية غالبا ما تقدم إلى أنف الملك واعضاء أسرته الرمز الهيروغليفى للحياة « عنخ » . كما كانت مادية الوحدانية الجديدة تسمح بمعاملة الإله الجديد نفس معاملة الآلهة القديمة فيما يتعلق بتقديم القرابين من الطعام والشراب وحرق البخور أمام مذبحة ، إلا أن عبادته كانت تجرى تحت السماء المفتوحة التى تغمرها اشعة الشمس ، إذ لا تناسبها بالتأكيد الأماكن المظلمة والمغلقة كما كان عليه قدس الأقداس للآلهة الأخرى .

وفى الوقت الذى طرحت الديانة الجديدة كل الأفكار السابقة عن العالم الآخر ، وألقت بمملكة أوزيريس بكل مافيها من آلهة وملائكة ومردة وشياطين إلى جحيم النسيان ، إلا أنها ظلت تأخذ بالعادات الجنازية القديمة كما هى بدون تغيير ، فاستمرت الجثة كما فى السابق تحنط ، والمومياء تدفن فى القبر المزود بوسائل حياة الميت ، وتوضع الأحشاء كما فى السابق ايضا فى اربع أوان كانوبية ويوضع حجر على شكل حشرة الجعران فوق قلب المومياء ، وتقام أهرام صغيرة فى المقبرة ، ويزود القبر بأشكال سحرية صغيرة تشبه

الاشانتى لترافق الميت وتقوم نيابة عنه فى العالم الآخر بكل الأعمال التى يتطلبها الحقل الأبدى ، فهى تروى الأرض ، وتقلب التربة ، وتبذر الحبوب ، وتحصد المحاصيل ، ولكن اختفت الصيغ السحرية القديمة وحلت محلها الصلوات والتراتيل لآتون ، ولم تعد غطيان الآنية الكانوبية الأربعة تمثل الآلهة القديمة ، وإنما حلت محلها غطيان على شكل رأس المتوفى .

أما الخطأ الرئيسى الذى وقع فيه أخناتون فإنه اعتبر الديانة الجديدة بمثابة ديانة خاصة به وأسرته ومعيته ، واعتبر آتون إلهه الشخصى او ملكيته الخاصة ، ولم يحاول أن ينشر الدين الجديد فى أوساط الشعب أو يكسب له الأنصار المؤمنين الذين يكونون على استعداد للتضحية بحياتهم من أجل العقيدة وبذلك فقد الدين الجديد أهم ضمان للأديان جميعا وهو الانتشار والشعبية ، وبدلا من أن يكون حركة جماهيرية واسعة النطاق اصبح بمثابة مذهب فرد ارستقراطى لا يفيد أحدا ولا يهم أحدا غير الفرعون وحاشيته ، ولذلك لم تلق جماهير الشعب بالا إلى الديانة الجديدة وإنما احتفظت بالآلهة القديمة المألوفة التى وجدت عليها الآباء والأجداد مما جعلها وقودا صالحا قابلا للاشتعال بمجرد انطلاق شرارة الثورة المضادة لاصلاحات أخناتون .

غير أنه لم تكن هناك مقاومة عنيفة ضد إدخال الديانة الجديدة فى اول الأمر ، أو على الأقل ليست لدينا سجلات عن قيام ثورات أو تمردات ضد سلطة الملك ، فقد كانت هيبة الفرعون لا تزال راسخة فى النفوس منذ أيام اعتباره بمثابة « الإله الطيب » الذى رضى أن ينزل من عليائه مع الآلهة ليرعى الناس على الأرض ، فمعظم كبار المسئولين أطاعوا أوامر الفرعون أخناتون ، والذين اعترضوا أبعدوا عن مناصبهم أو نحوا من الطريق ، وهكذا سارت الريح رخاء بسفينة أخناتون فى أول الأمر .

تمـرد الأقـاليم

ولكن إذا كانت الأحوال قد استمرت بهدوء في مصر فإن نتائج الاصلاح الديني كانت ملموسة بدرجة كافية في سوريا إذ بينما استمرت الجزية التي يبعث بها الأمراء الخاضعون تتدفق على مصر كالمعتاد في أول الأمر إلا أن من المؤكد أن ولاءهم لمصر ظل يفتر ويتراخى عاما بعد عام عندما لم يعد الفرعون يظهر على رأس جيشه كما كان يفعل من قبل ليخمد بيد قوية أدنى بادرة من التمرد ، فقد تحالف بعض الأمراء الرافضين للسيطرة المصرية في شمال سوريا ، وحصلوا على تأييد من دولة الحيثيين الفتية التي كانت في طريقها للظهور في آسيا الصغرى كما حصلوا على معاونة قبائل العابير والمحاربة (العبرانيون) الذين كانوا يشنون الهجمات للسلب والنهب ضد المناطق الخاضعة للحماية المصرية . وفي مواجهة تلك الجبهة القوية من الأعداء وقف القادة العسكريون المصريون والأمراء الموالون لمصر عاجزين عن أن يفعلوا شيئا بعد أن بح صوتهم في مناشدة أخناتون أن يخف إلى نجدتهم ، فقد كان لائذا بعاصمته الجديدة مكرسا كل جهوده لعبادة آتون وتوفير سبل السعادة لزوجته الجميلة نفرتيتي وبناتـه الأميرات تـاركا الامبراطورية التي شادها أجداده تتهاوى أمامه حجرا حجرا دون أن يحرك ساكنا .

★ ★ ★

الثورة المضادة

وكان من الطبيعي أن يؤدى هذا الحال إلى إثارة حنق العسكريين المصريين الذين بنوا تلك الامبراطورية بجهودهم ورشوها بدمائهم ابا عن جد منذ أيام تحتمس الثالث وأسلافه وهؤلاء وجدوا حليفهم القوى الأكبر فى كهنة أمون ألد أعداء أخناتون منذ البداية لأنه أهان آلهتهم وصادر ممتلكاتهم وأغلق معابدهم وجردهم من نفوذهم ، ومن هذا التحالف بين الطبقة العسكرية والكهنة بدأت المقاومة العنيفة ضد أخناتون بدون اكتراث من الشعب بل المؤكد أنه كان فى صف الثورة المضادة .

ولسنا ندرى ما حدث على وجه التحديد . فالأحداث فى نهاية حكم أخناتون شديدة الغموض ، ولكن يبدو أنه فى آخريات سنيه تراخى بعض الشىء فى اتجاهه الجديد تحت ضغط الكهنة والجيش وأمه الملكة القديمة «تى» فى محاولة لتحاشى الصراع العنيف فى البلاد . أما نفرتيتى فقد ظلت فيما يبدو من أشد أنصار « أتون » مما أحدث الانفصال بينها وبين أخناتون . وانعزلت فى قصر خاص بها فى الطرف الشمالى من المدينة ومعها ربيبها الطفل توت عنخ أمون الذى تزوج فيما بعد من ابنتها الثالثة « عنخ سن باتون » ، أما أخناتون فقد اتخذ له شريكا فى الحكم الأمير « سمنخ كارع » وزوجه من ابنته الكبرى « مريتاتون » التى حصل بالزواج بها على حق ارتقاء العرش ، وأرسله إلى طيبة لمحاولة تهدئة كهنة أمون الغاضبين ، ولكن هذه المحاولة لم تكلل بالنجاح ولقى اخناتون نهاية غامضة ، وبموته انقضت صفحة الديانة الجديدة إلا من سنوات قليلة تعاقب على الحكم فيها سمنخ كارع وتوت عنخ أمون والقائد العسكرى أى الذى حصل على حق ارتقاء العرش بزواجه من أرملة توت عنخ أمون .

ثالثا : الأفكار الأساسية فى الديانة المصرية

هكذا وئدت تجربة أخناتون فى الدعوة إلى الوحدانية التى كانت أول دعوة من نوعها فى تاريخ مصر ، ولم تعمر أكثر من مدة حياة صاحبها وإن كانت قد تركت خلفها بصمات واضحة خففت من غلواء الوثنية المصرية فى العصور اللاحقة .

غير أن الفكر الدينى المصرى ، بغض النظر عن فشل التجربة الوحدانية الأولى ، استشرف أهم المبادىء التى قامت عليها الديانات السماوية فيما بعد ، وهى مبدأ خلود الروح والحساب فى العالم الآخر والجزاء على الأعمال الدنيوية بالنعيم أو الجحيم .

كان الاعتقاد راسخا فى قلوب المصريين الوثنيين بأن الموت ليس نهاية كل شىء ، وإن الانسان سيواصل الحياة فى العالم الآخر تماما كما لو كان على الأرض بشرط أن تكفل له الشروط الضرورية للوجود ، وأولها أن يزود بالغذاء والماء ، ومن ثم كانت رغبة المصرى الحارة أن يحصل فى الحياة الأخرى على « آلاف الأرغفة والأوز والثيران والجعة وكل الأشياء الحسنة التى يعيش عليها الإله » . ومن أجل ذلك كان كل مصرى يزود مقبرته بجرار كبيرة ملآى بالطعام والشراب ، وإذا كان غنيا يوقف الأوقاف التى يضمن دخلها تزويد المقبرة فى كل الأوقات بما يلزمه للحياة فى العالم الآخر ، وإذا كان له أبناء أحياء أو أقارب وثيقون فإن عليهم أن يذهبوا فى أيام الأعياد الكبرى إلى مقبرته لتزويدها بالطعام والشراب والرياحين ، ومع ذلك لم تكن كل هذه الاشتراكات كافية ، فكانوا يغطون جدران المقبرة وجوانب التوابيت بكل أنواع الرسوم التى يمكن أن تتحول بالسحر إلى منتجات حقيقية تغطى الاحتياجات المادية للمتوفى ، وبالإضافة إلى مفردات الطعام والشراب كانت المقبرة تزود بأدوات الزينة مثل المجوهرات والزيوت والعطور وكحل

العين والأثاث والملابس بل وحتى الأسلحة اللازمة لحماية المتوفى من أعدائه .

ولاشك أن إسراف المصريين فى تزويد المقبرة بكل هذه الأشياء ، وكذلك إسرافهم فى الحفاظ على سلامة الجثمان بالتحنيط وإيداعه فى مكان حصين .. إلخ يدل على عدم نضج كاف فى الفكر الدينى إذ لم يتصوروا قدرة الخالق على إعادة الخلق من التراب كما كان الخلق الأول من العدم ، وقد لازمهم هذا القصور فى التصور فى كل ما يتعلق بالحياة الأخرى ، فهم وإن كانوا يعتقدون فى الخلود فإن الشرط الأساسى كى يبدأ الميت الحياة من جديد أن تتلى عليه نفس الصنيع وتقام له نفس المراسم كما فعل حورس بأبيه أوزيريس ، والدخول إلى مملكة اوزيريس يتوقف على تلاوة أعوذة وصيغ سحرية معينة بالإضافة طبعا إلى وجوب أن يكون الميت قد عاش حياة فاضلة على الأرض ، ولهذا كان من الضرورى أن يمثل كل فرد بعد وفاته للمحاكمة فى حضرة اوزيريس امام ٤٢ قاضيا ويعلن نفسه بريئا من الأعمال الرديئة ، وبعد أن يتحقق ذلك يوزن قلب الميت بميزان الفضيلة أمام الإله تحوت . وعندما تثبت براءته يسمح له بالدخول فى مملكة العالم الآخر .

وظهرت أفكار مختلفة عن المكان الذى يقيم فيه الموتى الصالحون أغلبها أنه يقع فى مكان ما فى الغرب أى منطقة غروب الشمس ، كما كان من المعتقد فى بعض التصورات أن الراحلين يتحولون إلى نجوم لامعة فى السماء أو أنهم يحيون فى حقول الأسل السماوية حيث يقومون بزراعة الأرض وحرثها وريها وحصادها كما كانوا يفعلون على الأرض فيما عدا أن سنابل القمح فى هذه الحقول يصل ارتفاعها إلى ٧ كوبيت (١٢ قدما) .. وهذه حقا جنة رائعة للفلاح المصرى !

وهناك نظرية أخرى كانت أصلا خاصة بالملك وحده فحواها أنه توجد تحت هذه الأرض المألوفة التى يحيا فيها الناس أرض أخرى

سفلية مغطاة بسماء ويخترقها بطولها مجرى ماء ، وهذا العالم السفلى مقسم إلى اثنى عشر جزءا تقابل الساعات الاثنى عشر التى يتكون منها الليل وتفصل بين الجزء والآخر بوابات ضخمة ويسير موكب الشمس فوق المجرى المائى وعليه إله الشمس ذو الراس الخروف محاطا كالملك بحاشيته ، فيجلب لفترات قصيرة الضوء والحياة إلى المناطق المظلمة التى يبحر بينها ، ويرافقه فى هذه الرحلة الليلية المتوفى سواء كمرافق لإله الشمس أو باعتبارها الإله نفسه .

وقد أحرز فن التحنيط تقدما كبيرا بحيث احتفظت الجثة بكثير من الملامح المألوفة للمتوفى ، وفى البداية كان التحنيط مبسطا للغاية ، فهم يكتفون بإزالة الأحشاء من الجسد ، ويملأون تجويف البطن بقطع من القماش الرقيق المشبع بالراتنج ، ثم تنقع الجثة فى محلول من ملح النطرون وتلف بالأربطة ، وفيما بعد كانوا يحقنونها بزيت خشب الأرز ، ومع مجرى الزمن حقق فن التحنيط تقدما هائلا ، فاصبحوا ينتشلون المخ من الجمجمة باستخدام شوكة حديدية ويضعون مكانه عجائن من الراتنج ليحفظوا بقدر الامكان ملامح الوجه ، ومنذ عهد الدولة القديمة كانوا يحفظون الأحشاء فى أربع قوارير توكل بحمايتها اربعة آلهة مسئولة عن حفظ الميت من الجوع والعطش ، وكانت عملية التحنيط تستمر ما لا يقل عن سبعين يوما وبعدها تجرى كل احتفالات الدفن الصحيحة وتوضع الجثة المحنطة فى النعش ، وتوسد القبر .

● ● ●

هذه باختصار اهم الأفكار الأساسية التى تعبر عن تصورات المصريين القدماء فى الدين والعقائد والحياة بعد الموت ، وهى ان دلت على شىء فإنما تدل على قيم عظيمة لم تصل إليها معظم الشعوب البدائية بل لعلها استشرفت بعض الذرى التى بلغتها الأديان السماوية اللاحقة . ولذلك فإن من الظلم الفادح للمصريين القدامى

ان يسموا بانهم كانوا أمة بائدة من الوثنيين بل كانوا شعبا متحضرا في عقائدهم وتصوراته بالقدر الذى يسمح به التطور الزمنى في ذلك العصر السحيق الذى عاشوا فيه من تاريخ البشرية .



رواسب قديمة فى حياتنا المعاصرة

لاحظ كثير من الكتاب والاثريين أوجه تشابه قوية بين كثير من ملامح الحياة المصرية المعاصرة ومثيلاتها في العصر الفرعوني ، ومن هؤلاء الكتاب الذين اعتمدت عليهم في هذا الفصل : محرّم كمال في كتابه « آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية » ووليم نظير في كتابه « العادات المصرية بين الأمس واليوم » واحمد رشدى صالح في كتابه « الأدب الشعبى » ود . احمد عبد الحميد يوسف في مقال له بالأهرام نشر في ٢٨ / ٨ / ١٩٦٩ ووينفريد بلاكمان في كتابها «The Fellahin of Upper Egypt» كما ان هذا الفصل نفسه مجتزأ من كتابى القديم « وحدة تاريخ مصر » (١٩٧٢) .

واول ما يلاحظ في هذا التشابه ان السمات العامة للريف المصرى المعاصر ، لاسيما قبل أن تمسه عصا الثورة التكنولوچية ، تكاد تطابق تماما سمات الريف المصرى القديم من حيث تخطيط القرية ، وشكل المنازل ، واسلوب الحياة اليومية ، والأدوات المستعملة في البيت والحقل ، وطريقة الزراعة .

فالمنازل في القرية المصرية الحديثة والقديمة على السواء تتكون من طابق واحد أو طابقين ، وتقام بالطوب اللبن الذى يصنع بنفس الطريقة ، وتطلى واجهتها بالجير الأبيض او الملون ، وامامها نفس المصطبة ، ولها عدة درجات تصل إلى السطح حيث تجد نفس الصوامع الطينية التى تستخدم فى اشعال الفرن ، وهناك ملقفان لجلب الريح الشمالية والجنوبية فى أوقات القيظ ، وهندسة المنزل الداخلية كما هى سواء بالنسبة لمنازل القادرين ذات الحديقة

والحجرات المتعددة ، أو بيوت الفقراء التى تقتصر على غرفة واحدة يشترك فى سكنها الإنسان والحيوان ، بل ان الاخصاص المقامة بالطين والبوص فى الحقول تشبه مثيلاتها القديمة تماما .

والحقول الحديثة تكاد تكون صورة طبق الأصل كذلك من حقول الفراعنة بما تنقسم إليه من مربعات صغيرة يسهل ريها وما يستخدم فيها من آدوات الزراعة كالمحراث والفأس والشادوف والمنجل والمذراة ، ومعظم طرق الزراعة والحصاد والتذرية المستخدمة اليوم هى نفسها التى كانت تستخدم منذ آلاف السنين .. هذا طبعا قبل وصول الميكنة الزراعية التى قلبت الصورة رأسا على عقب .

وشوارع القرية قديما وحديثا متشابهة ، يمكنك أن تشاهد فيها نفس المناظر ، فالرجال يرتدون نفس الجلابيب الزرقاء ، والنساء يتشحن بنفس الطرح ذات الألوان الزاهية ، والأطفال برؤوسهم الحليقة إلا من خصلة أمامية تترك للزينة وبالعابهم الجماعية والرياضية والبهلوانية التى يمارسونها فى الهواء الطلق يعيدون كذلك صورة من الماضى السحيق ، كما يعيدها آباؤهم وهم يتحاطبون بالعصى أو يلعبون السيجة .

ويمكنك أن تشاهد أصحاب الحرف والصناعات اليدوية القدماء وقد بعثوا من مراقدهم وأخذوا يزاولون جياتهم اليومية المعتادة إذا نظرت إلى أحفادهم اليوم وهم يعملون فى حرفهم اليومية داخل حوانيتهم الصغيرة ذات الأبواب المفتوحة على مستوى الطريق .

والوشم الذى يزاوله كثير من الفلاحين اليوم يرجع إلى اقدم العصور وربما إلى ما قبل الأسرات ، ولايزال الرجال ينقشون على جانب جباههم صورة عقاب كأثر لتقديس الصقر حورس ، والنساء ينقشن على أذقانهن علامة « نفرت » التى ترمز للجمال .

وأدوات الفلاح المعاصر وحرفه اليدوية هي نفس الأدوات والحرف القديمةالتي كانت تزاول في القرى المصرية منذ آلاف السنين ، فهو يصنع قوالب الطوب اللبن والأواني الفخارية بنفس الطرق والمواصفات ، ويستخدم روث البهائم نفس استخدامه القديم ، ويصنع نفس السلال والمقاطف والزكائب والاقفاص والحبال والأنوال والمغازل ، ويستعمل نفس المحراث والفاس والشادوف وخيال المقاتة والمذراة ، ويجفف خبزه في الشمس ، ويقيم أسواقه في الهواء الطلق .

ويقدم محرم كمال هذا التصوير الشاعري للتشابه القوي بين مظاهر الريفين الحديث والقديم في كتابه « آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية » فيقول : « ونحن إذا سرنا على جسور القرى نرى صفوفاً من الرجال والماشية والدواب وهي تسير في الأفق البعيد فتعيد الى ذاكرتنا مناظر الصفوف الطويلة المشابهة المرسومة على جدران المعابد والآثار ، ومما يزيد هذه الصورة حركة وقوة حياة ما نراه يرفرف فوق رؤوسنا من طيور ، فهنا نجد الآلهة المصرية القديمة « نخبت » ترفرف في شكل عقاب ، وهناك يطير الإله « حورس » على شكل صقر كبير ، وعلى مدى البصر يسير الإله « أنوبيس » على شكل ابن آوى فيختبيء في الوديان والسهول ، وعند مواطيء اقدامنا نرى « خبر » يسير متمهلا في شكل جعل (جعران) صغير ، وهناك تحت الشجرة الباسقة نرى الإله « خنوم » يرقد تحت ظلها في هيئة كبش كبير ، وهكذا في كل جانب من جنبات الوادي وسهوله نرى الحروف والعلامات الهيروغليفية تقفز بيننا ، تذهب وتجيء ، كأنها نقوش معبد فرعوني قديم قد عادت إليها الحياة فجأة بقوة ساحر عظيم » .

* * *

العادات والتقاليد

وكثير من العادات والتقاليد التى كان يمارسها المصريون القدماء لا تزال باقية إلى اليوم ولا تكاد تدخل تحت حصر ، منها مثلا لجوء الزوجة الغاضبة إلى منزل أخيها ، وعقاب الزوجة الخائنة والابنة الخاطئة بالقتل ، وولع النساء بالتزين بالحلى والكحل والشعر المستعار ، والتخلص من شعر الجسد ، وحب الاكثار من الأولاد الذكور ، والتمسك بوظائف الحكومة ، والعزوف عن الهجرة (فيما عدا الفترة المتاخرة .) والتوسع فى الولائم والأفراح ، وكذلك العادات المصاحبة للموسيقى والغناء كالتصفيق بالأكف . والطرقعة بأطراف الأصابع ، وإظهار الإعجاب بالمغنى . ووضع اليد على الخد عند الغناء أو تجويد القرآن ، وأدوات الموسيقا كالمزمار والدفوف والصاجات ، والزواج المبكر ، وتقاليد الزواج والولادة والرضاع ، وغسل الأيدى قبل الأكل وبعده . والتطهر بالاغتسال ، والاعتقاد فى السحر وفنونه وقدرته على النفع والإيذاء والتحبيب والتفريق ، واستخدام الدمى التى تخرق بالدبابيس وتحرق فى النار ، وتقلد التمائم والأحجبة والتعاويذ ، والاعتقاد فى الحسد وأيام السعد والنحس ، وتعليق البصل فى الأعياد ، واستخدام طاسة الخضة ، وإقامة حفلات الزار لطرد العفاريت من الجسد ، وتكريم بعض المعبودات القديمة كالأشجار والقطط والثعابين ، وتعليق التماسيح المحنطة على أبواب المنازل ، ونحر الذبائح على عتبات المنازل الجديدة ، والوصفات الطبية الشعبية ، والعلاج بالعقاقير القديمة كالخردل والثوم وزيت الخروع . والاعتقاد فى القديسين والمشايخ المحليين ، والاحتفال بعيد وفاء النيل وليلة النقطة وشم النسيم وأكل الفسيخ والبيض والبصل والخس والملانة فى الحدائق ، وتناول الطعام على الطبلية فى البيوت ، وصنع كعك الأطفال على هيئة أشكال آدمية ، ومضغ

اللبان ، وحرق البخور ، وخضاب الشعر والأيدى والأقدام بالحنة ، وقرع الطبول والصفائح المعدنية عند خسوف القمر . وفكرة القرين الذى يطابق شكل المولود ويولد معه فى نفس اللحظة ، والاعتقاد بوجود « الأخت » أو القرينة ، وكذلك العادات المتصلة بالحيوان مثل تزيين ثيران الضحية ، وختم الماشية بخاتم محمى بالنار وتعليق الأجراس والجلاجل حول رقاب البقر ، والاعتقاد فى تقمص الأرواح للقطط ، والرفق بالطيور وتحريم اصطياد النافع منها للزراعة ، وتسمين الدواجن بطريقة « التزغيط » .. كل هذه ومئات غيرها عادات وتقاليد انحدرت إلى المصريين المحدثين من أجدادهم القدماء ويندر ان تجد مثيلا لها بين الشعوب العربية الأخرى .

اما العادات المتعلقة بالحزن والوفاة فهى من أقوى العادات القديمة التصاقا بالمصريين المحدثين بالرغم من انها مستهجنة دينيا ومن هذه العادات البذخ فى إقامة المقابر ، والتطرف فى إظهار الحزن بالصياح والعويل وحل الشعر ولطم الخدود وشق الجيوب وتعرية النحور والاثداء وتلطيخ الرؤوس والأجسام بالنيلة والطين واستئجار النسوة المحترفات للندب والتعديد . وتدور هذه المراسم المزعجة وجسد المتوفى مسجى فى فراشه ، ويدخل الأهل والأصدقاء لالقاء النظرة الأخيرة عليه . (كما فعل اخناتون وزوجته نفرتيتى فى لوحة شهيرة وهما يلقيان النظرة الأخيرة على جسد ابنتهما المتوفاة) ثم يكفن الميت بأثواب عديدة قد يبلغ طولها عشرات الأمتار (فى حين ان النبى كفن فى بردته) وتغسل ملابسه لتخليص بقايا روحه العالقة بها ، وتصرف الروح بقراءة القرآن او استدعاء القسس (وكانوا قديما يستدعون الكهنة) ثم تبدأ مراسم الجنازة فتشترك النسوة فيها كما كن يفعلن قديما ، وربما يسير امامها حملة القماقم والمباخر الذين يشبهون خدم الميت وكهنته فى العصور القديمة ، وعند الوصول الى المقبرة التى تشبه

في هيكلها المثلث مثيلتها القديمة يذبح حيوان وترش دماه على عتبة القبر (كما فعل سنوحي منذ اربعة آلاف عام) ويثوى المتوفي في قبره بين العويل والصياح والتلاوة والإنشاد ، وأخيرا يقفل الركب عائدا حيث يمكث الرجال أمام المنزل لتقبل العزاء بينما تنفلت النسوة إلى الداخل ليواصلن عويلهن بين صديقاتهن المجاملات ، وتنزع النساء حليهن ، ويطلق الرجال ذقونهم ، ويمتنع الجميع عن مظاهر الترف أياما أو أسابيع (كانت فترة الحداد تستمر سبعين يوماً في مصر القديمة وهي المدة التي تستغرقها عملية التحنيط أو أربعين يوما في بعض الحالات .

وبعد ذلك تبدأ طائفة كبيرة أخرى من العادات المتصلة بهذا الحدث الجلل كزيارة المقابر في الأعياد بالخبز والكعك والفاكهة وسعف النخيل ، والتصدق على روح المتوفي ، وتلاوة القرآن في المقابر ، وطلب الرحمة والنور للأموات ، ومناشدة قارىء شاهد القبر أن يقرأ الفاتحة على روح المتوفي ، والاعتقاد بأن روح المتوفي تعود الى القبر في أيام (الطلعة) لرؤية الأقارب والأحباب ، كل هذه العادات لها مثيلاتها الحرفية في مصر القديمة .

* * *

ألفاظ وتعبيرات مصرية قديمة

ليست هذه العادات والتقاليد فحسب هي ما تبقى من مخلفات مصر القديمة بل نجد إلى جانبها مجموعة كبيرة من الألفاظ المصرية القديمة لاتزال عالقة بالألسنة تنطق كما هي في نفس استخداماتها احيانا وبتحريف ضئيل أحيانا أخرى لتدل بدورها على وجود استمرارية واضحة في حياة المصريين .

ومن هذه الألفاظ مجموعة من اسماء الأشخاص لا تستخدم فقط بطريقة واعية بغرض احياء المجد القديم مثل رمسيس ومينا وتحتمس واحمس ورامس ، وانما تستخدم كذلك بطريقة غير واعية وعلى نحو يفيد الاستمرار على الألسنة رغم نسيان معناها الأصلي ، ومن هذه الأسماء بانوب (اى عين الأله أنوبيس) وباهور (عين الإله حورس) وتايبس (خادمة ايزيس) وباخوم (عين تمثال الإلهة) وبشاى (عبد الله) وآدم (اتوم) وماري (مرى أي المحبوبة) وساويرس (من ساور أى الرجل العظيم)

ومنها ايضا اسماء الشهور القبطية القديمة التى لاتزال مستخدمة في الزراعة وتحمل نفس اسمائها وخصائصها القديمة الى اليوم ، وهي : توت (شهر الإله تحوت) وبابه (عين امون) وهاتور (شهر حتحور) وكياك (شهر كاهاكا أى اجتماع الأرواح) وطوبة (عيد القمح) وأمشير (شهر إله الريح والعواصف) وبرمهات (نسبة إلى الفرعون امنمحات) وبرمودة (شهر رنودة إلهة الحصاد) وبشنس (شهر بن خنسو إله القمر) وبئونة (باأونى أى عيد جبانة وادى الملوك) وأبيب (عيد الإله أبيبى) مسرى (مس . رايه ابن رع)

ومنها طائفة كبيرة جدا من اسماء المدن والقرى التى بقيت كما هي أو حرفت قليلا ، فمن الأسماء الباقية كما هي دون أدنى تحريف : طرة ، بسيون ، صهرجت ، شطانوف . دفرة . طوخ .

شبرا . شبراخيت ، شبراريس ، شبرامنت ، مطاى ، طهطا . قوص ، كوم امبو ، بلامون ، ياويط ، اسنا .

ومن الأسماء المحرفة قليلا : أثر النبى (هاتور ننوب اى معبد حتحور الذهبية) حلوان (حر . اون اى المدينة التى تعلو أون) الفرما(بر . ماعت أى معبد الآلهة ماعت ربة العدل والفضيلة) دمنهور (دمى . ن . هور اى معبد الإله حورس) الزقازيق (چقاچيق بالقبطية) بلبيس (بر . بيس اى معبد الإله بس إله المرح والسرور) تل بسطة (بر . بابستة اى معبد الإلهة بابست القطة) أبو صير (بر. أوسير اى معبد الإله أوزيريس) سنهور (سا . ن . حور ابن الإله حورس) بهبيت (بر هبيت أى معبد الأعياد) بنها (بنها وبالقبطية) بولاق الدكرور (بولاق . دكرور أى جزيرة الضفادع) سقارة (نسبة للإله سكر إله الجبانة) الفيوم (بى . يوم اى الأرض المغمورة بالماء) ميدوم (بر. آتوم اى معبد الإله آتوم) اهناس (هنسو بالهيروغليفية وهناس بالقبطية) المنيا (منت اى الميناء) اشمونين (شمنو اى مدينة الآلهة الثمانية) ملوى (منلوى بالقبطية) أسيوط (سيوط ومعناها الحارس) اخميم (خم . مين اى مدينة الإله مين) طما (حت . طمت بالهيروغليفية) دندرة (تندرر بالهيروغليفية وتنترة بالقبطية) قفط (جبتو بالهيروغليفية ومنها اسم القبط واسم مصر باللغات الأجنبية) أرمنت (بر . منت اى بيت الإله منتو) إدفو (ادبو بالقبطية) أسوان (سوون أى السوق بالهيروغليفية) النوبة (ننوب أى أرض الذهب) .

وإلى جانب ذلك هناك تعبيرات كثيرة لانزال نستخدمها فى حياتنا اليومية وليس لها أصل عربى وإنما أصلها قبطى وفرعونى ولكنها لاتزال قوية وموحية فى اللغة العامية الدارجة لتدل بدورها على الاستمرارية فى حياة المصريين . من هذه التعبيرات كلمة دميرة

التى لا يزال يستخدمها الفلاحون الى اليوم ومعناها فيضان النيل ، وحسى اى بئر أو عين ماء ، وفىّ أى مجرى أو قناة وبعبع واصلها بوبو وهو عفريت يخيف الأطفال ، وبخ اى عفريت أو شيطان . ومم وهى مدم أى طعام ، وامبو ومعناها شراب ، وننه هوة وهى دعوة للنوم ، وتاتا ومعناها المشى ومنها اسم نفرتيتى وترجمته الجميلة تتهادى ، وطظ فش وهى توس فيش وهو الشيء اليابس الذى لا يثمر ، وابن الإيه أى « ابن البقرة » وتيليسّ وهى مشتقة من الكلمة الفرعونية ليس اى طين ومنها لوصة أو وحل ومنها أيضا تعبير هيلاليصا الذى يستخدمه المراكبية إلى اليوم وترجمته هيا نخرج من الوحل ، وكلمة يمهيص مشتقة من مه . يص اى سرعة أو قفز بلا نتيجة ومنها مهيصة ومهياص وهو الرجل الكثير الحركة بلا انتاج ، وسباب جاك أوا أى جاءك الويل أو الحسرة ، وجاك طمسة أى فلتدفن لأن الطمسة فى الفرعونية هى الدفن ومنها فول مدمس أى مطموس أو مدفون ، وبيبة وهى حشرة البرغوث ، وحمرا اى غش فى اللعب ، وعنتيل وهو القوى من الكلمة الفرعونية انتورى واشتقت منها الكلمة اليونانية قنطورس وهو حيوان قوى براس انسان وجسد ثور . وخن كلمة قبطية معناها داخل ، ومشرشر اى مكسر ، ومخلخل أى مخلع ومخمخم أى فاسد ، ويشطف اى يغسل الملابس من الكلمة الفرعونية ايشتوفو ومنها طشت وهو آنية الغسيل ، ويشطح اى يسهو ، وخم وتستخدم للدلالة على تفضيل الشيء نتيجة للجهل بحقيقته ويقال أنا اتخميت اى فضلت شيئا على شيء باعتباره خطأ انه الأحسن ، ونونو أى صغير ، ويولول من ويلويلّى أو ولولة وهو النوح والبكاء . ويشنشن أى يرن او يطن ، وصهد اى نار أو لهيب ، ونجرة أو نقرة الشمس من نج .. رع أى شمس شديدة ، وشأشأ من شاهشا اى سطع أو أضاء ، ويوش اى يصدر صوتا رتيباً ، وباش أى لان أو طرى ، وبوش أى

سلب او نهب ومنها راح بوش اى راح بلا ثمن ، وكوش اى اخذ لنفسه كل شيء ، ويبشبش اى يندى الثرى ، وامان وامين هما تحريف امون ، ورخ اى نزل المطر او الماء ، ويا ما من أما بمعنى كثير ، وكاني ماني اى سمن وعسل أما دكان الزلباني فهو دكان البقال ، وحاتا باتا اى لحم وعظم ويقال نزل على الأكل حتتك بتتك اى لم يترك منه لحما او عظماً ، وليلي يا عيني اى افرحي ياعيني وقد وردت في انشودة العذراء مريم ومطلعها بالقبطية : ليلي أودى برتينوس اى افرحي ايتها العذراء .

ويقدر محرم كمال عدد الكلمات الفرعونية والقبطية المستخدمة في لغتنا الدارجة بالمئات ان لم يكن بالآلاف أصلا أو اشتقاقا أو ترجمة حرفية ، وهي تكثر في مجالات الحياة اليومية المختلفة ولاسيما في الأعمال المزاولة من قديم والعادات القديمة المتوارثة .

* * *

الذاكرة الشعبية

يقول احمد رشدى صالح فى كتابه « الأدب الشعبى » .

« الواقع أن الأدب القبطى العامى واللغة الدارجة القبطية مازجا الأدب العربى واللهجات العامية العربية ، واستوى من ذلك مزاج عربى قبطى ، أو قل استوى مزاج قبطى اسلامى ، وهذا يصدق على الشكل والمحتوى سواء بسواء ، ولو أردنا ان نشير إلى المحتوى - أى المعتقد الشعبى - أيام العهد الاسلامى لما استطعنا إلا أن نجده مكملا للمعتقد الشعبى الفرعونى وان كان مكملا له فى وجه جديد ، وكما أن المصريين أخذوا المسيحية دينا رسميا دون أن ينبذوا فعلا تصوراتهم الوثنية السابقة فكذلك اقبلوا على الإسلام يعتنقونه ولايتخلون عن تلك التصورات بل غالبا ما كانوا يذيعونها . وما يقال عن المعتقد الشعبى يقال عن أصول المعارف الشعبية وكذلك السلوك الاجتماعى وقضايا الاخلاق وغيرها .

ويضيف : « إذا كنا نؤرخ لأدبنا الشعبى الشفاهى باستخدام العامية فى مصر فالواقع ان جذوره أقدم من ذلك بكثير وانها ترجع إلى الأدب الشعبى المصرى الفرعونى القبطى فى أطواره السابقة .. ومخطوطة المستشرق أويستروب التى يعتبرها البعض أقدم نص عامى مكتوب فيها مزيج من مفردات العاميتين القبطية الصعيدية والعربية الدارجة ، ومؤدى ذلك أن الكتبة والصناع والفنانين كانوا فى المرحلة الأولى الطويلة اقباطا مزاجا او اقباطا رسميا ودينيا .. وكذلك حدث تزاوج بين الروح الإسلامية وبين الفن القبطى ، فالزخارف الإسلامية المكونة من الخط والنقطة كان موطنها الأول مصر ، ويوجد مصحف بدار الكتب المصرية يرجع إلى أوائل القرن الثانى الهجرى وبه زخارف قبطية ، وهناك رق مكتبة جوتا

بمدينة ميونيخ الذى يتضمن صفحة من القرآن وبها فواصل بين السور عبارة عن زخارف قبطية ، ومعظم زخارف جلود الكتب الإسلامية الأولى بمصر بها زخارف ذات طابع قبطى والتواريخ عليها على أساس التقويم القبطى »

كما تناقلت الذاكرة الشعبية جيلا بعد جيل قصصا وأساطير وخرافات تعود إلى مصر القديمة أو تدور حول أحداث سحيقة أو تتعلق بآثار مصرية قديمة .

* * *

وقد سجلت وينفريد بلا كمان فى كتابها عن فلاحى مصر العليا بعض هذه القصص التى لايزال يحكيها قصاصو القرية المحترفون ومنها « قصة شاه إيران وابنته والبقرة الذهبية التى سجلها هيرودوت نقلا عن المصريين . وتقول القصة الحديثة ذات الأصل القديم الذى سجله هيرودوت ان ابنة شاه إيران الجميلة احتالت للتهرب من عزم أبيها الزواج منها بأن صنعت بقرة ذهبية واختبأت فى جوفها ، وباع شاه إيران البقرة الذهبية ، وهو يجهل ما فيها ، إلى ملك الهند الذى اكتشف امر الفتاة وأحبها وقرر الزواج منها عندما تسنح الفرصة ، وحدث أن سافر ملك الهند لبعض شئونه فى الخارج وطلب من أمه ان تقدم كل يوم الطعام للبقرة وتتركها هى وشأنها ، ولكن بنات عمه الشريرات ـ وكن يطمعن فى الزواج من الملك ـ يكتشفن أمر الفتاة ويحتلن على أم الملك حتى يأخذن البقرة ويوقدن نارا تحتها ، فتخرج منها الفتاة ثم يضعن الفتاة فى صندوق ويلقين به فى اليم فينتشله شيخ صياد يأوى الفتاة فى أسرته ، وعندما يعود الملك ويكتشف ضياع البقرة الذهبية يصيبه الحزن البالغ ، أما الفتاة فكانت تنسج المناديل وتعطيها للصياد الشيخ لبيعها والارتزاق منها ، وطلبت الفتاة من الصياد أن يبيع منديلا

معينا للملك نفسه ويحترز من أن يصل إلى أى مشتر آخر ، وعندما وصل المنديل إلى يد الملك قرأ عليه ما نقشته الفتاة عن أمرها ومكان وجودها فبعث في احضارها واجتمع شمل الحبيبين ، وبطش الملك ببنات عمه الشريرات .

* * *

وهناك قصة شعبية أخرى تحكيها عجائز الفيوم عن مغامرات أحد الشطار وهى تماثل حرفيا القصة الفرعونية التى سجلها هيرودوت عن اللصين اللذين أسر لهما أبوهما البناء قبل وفاته بسر الدخول إلى خزائن الملك عن طريق حجر مسحور يسهل تحريكه ، وحين يكتشف الملك انتقاص جواهره تباعا مع أن باب الخزائن مقفل واختامه سليمة يأمر بصنع فخ يوضع فى حجرة الكنوز ، ويأتى اللصان كالعادة لسلب مزيد من الجواهر فيسقط أحدهما فى الفخ ولكنه يطلب من أخيه أن يقطع رأسه ويأخذها معه حتى لايتعرف عليهما الملك ، وفي الصباح يكتشف الملك - لحيرته - الشديدة - جثة بلا رأس قد أمسك به الفخ ، فيأمر بتعليق الجثة فى السوق حتى يكتشف أحدا من أقارب اللص إذا وجده يبكى بالقرب من مكان الجثة ، وتطلب أم اللصين من ابنها الحى أن يحضر جثة أخيه فيحتال على ذلك بأن يدفع حراس الجثة إلى احتساء كمية كبيرة من الخمر كان ينقلها فوق قافلة من الحمير ويتظاهر بأنها تسيل منه على الأرض ، وعندما ينام الحراس من فرط السكر ، يفك اللص جثة أخيه المقطوعة الرأس ويحملها عائدا إلى أمه . وتزداد حيرة الملك ويقرر القبض على اللص مهما كان الثمن فيضع ابنته فى ماخور ويطلب منها أن تسأل من يتردد عليها عن أبرع وأخبث ما فعل فى حياته ، وأن تمسك على الفور بمن يخبرها بهاتين المغامرتين أى سرقة الكنوز وسرقة الجثة . ويحضر اللص أثناء الليل ويقص على ابنة

الملك تفاصيل مغامراته وعندما تهم بالامساك به يضع في يدها كفا مقطوعة كان قد أحضرها معه لهذا الغرض ، ويتسلل هاربا تحت جنح الظلام ، وعندما يعرف الملك ما حدث تزداد دهشته واعجابه باللص الشاطر فيعفو عنه ويزوجه من ابنته ـ هذه القصة أوردها شوقي عبد الحكيم في الملحق الأدبي لصحيفة الأخبار ٢٩ / ٦ / ١٩٦٩ بعد ان سمعها شفاهة من عجائز بلدته الفيوم وعقد مقارنة بينها وبين قصة هيرودوت تدل على التشابه المطلق بينهما .

* * *

وتدل هاتان الحكايتان ـ ومن المؤكد ان هناك كثيرات غيرهما ـ على أن ذاكرة الشعب المصرى تحتفظ بحكايات فرعونية قديمة لاتكاد تفقد تفاصيلها القديمة رغم مضى آلاف السنين ، وهذا دليل على انها ذاكرة تضرب في أعماق الماضي البعيد وأن التراث القديم يتناقل شفاهة عبر الأجيال ـ ويمكنك أيضا أن تراجع في هذا الشان « أسطورة أوريست والملاحم العربية » للدكتور لويس عوض وفيها يثبت أن ملحمة الزير سالم تحمل آثار أسطورة ايزيس واوزيريس .

أما الأساطير والخرافات التي تدور حول مصر القديمة و آثارها العجيبة ولايزال يتناقلها المصريون الى اليوم فهي كثيرة ومتواترة ، وقد أورد بعضها محرم كمال في كتابه « آثار الفراعنة في حياتنا الحالية »

* * *

فهناك اسطورة « الدهبية العجيبة » التي يحكيها أهل الأقصر ويزعمون فيها أن سفينة ذهبية تظهر في بعض الليالي القمرية على سطح البحيرة المجاورة لاطلال معبد الكرنك ، وعليها ملك من الذهب الخالص يحف به بحارة من الفضة ، وتشق طريها على سطح البحيرة مخلفة وراءها ذيلا من الأحجار الكريمة ، والسعيد من

يصادف هذه السفينة ويتتبعها في صمت وهدوء حتى ترسو على الشاطىء فيقفز إليها في غفلة من حراسها ويغترف من كنوزها مايشاء . اما إذا ابدى حركة رعناء او صوتا يجعل ركاب السفينة يفطنون إلى وجوده فسوف تضيع فرصته النادرة ، إذ تختفي السفينة الذهبية فورا تحت سطح الماء .

* * *

فهذه الاسطورة أثر باق من الاحتفال بعيد الإله أمون على صفحة البحيرة المقدسة المجاورة لمعبده حين كان الكهنة يحملون تمثال أمون المصنوع من الذهب الخالص ويخرجون به من قدس الأقداس حيث يضعونه في السفينة المقدسة التي يركب فيها أيضا الملك وكهنته وكبار حاشيته ويقومون بجولة في انحاء البحيرة المقدسة بين الترتيل والانشاد .

* * *

ونفس الاحتفال بامون يكاد يتكرر كل عام بتفاصيله حتى الآن وذلك في الاحتفال بمولد سيدى أبى الحجاج الولى الإسلامى حامى الأقصر والمتخذ مقامه بين اطلال معبد الاقصر ، إذ يوجد في هذا المقام قارب أو سفينة صغيرة يحملها الناس على أكتافهم في عيد ابى الحجاج الذى يوافق ليلة النصف من شهر شعبان المكرم ويطوفون بها في عربة ذات عجلات في انحاء الأقصر . فالرموز الحديثة المستخدمة في الاحتفال بأبى الحجاج توحي بالرموز القديمة المستخدمة في الاحتفال بامون كالقارب المقدس والقيام بجولة في المدينة ، والاحتفال الشعبى بأبى الحجاج وما يتخلله من غناء ورقص وعبث وشراب يكاد يعيد صورة طبق الأصل من الاحتفال بامون حيث كان الكهنة - كما تسجل النقوش - يحملون تمثاله في قارب صغير على اكتافهم ثم يضعونه في السفينة المقدسة الكبيرة الراسية أمام المعبد حيث تنقله الى معبد الكرنك

وبحيرته المقدسة ويشارك فى المهرجان النبلاء والجنود وقد رفعوا الأعلام والبنود ، والناس من حولهم يبتهجون ويرقصون ويشربون بينما يعرض اللاعبون والمهرجون ألعابهم وفنونهم ويعزف الموسيقيون على آلاتهم .. وجميعها مناظر تكاد تتكرر بحذافيرها فى مهرجان أبى حجاج إلى اليوم .

* * *

وعلى مقربة من معبد الكرنك يوجد معبد قديم للإله بتاح اشتهر بين سكان الأقصر بأنه مقر غولة فظيعة تفترس الأطفال ، وتأكد لديهم هذا الاعتقاد المجهول المصدر عندما انهار جرف أثناء بعض أعمال التنقيب بالقرب من المعبد ودفن تحته سبعة أطفال صغار كانوا يلهون على مقربة منه ، ولم تظهر جثثهم أو عظامهم بعد ذلك على الإطلاق ، وكان الأهالى لشدة اعتقادهم فى صحة خرافة الغولة يتحاشون المرور بهذا المكان قدر إمكانهم ، فإذا اضطروا إلى ذلك اعترتهم رعشة الخوف وتمتموا بالتعاويذ . وظل اصل هذا الاعتقاد مجهولا حتى كشفت الحفريات الحديثة عن تمثال هائل للآلهة « سخمت » ذات رأس اللبؤة والسحنة البشعة داخل ذلك المعبد . و « سخمت » هى التى وكل إليها « رع » فى الأسطورة القديمة مهمة افناء الجنس البشرى عندما ازداد فسادا وشرورا فاغرقت سخمت البلاد فى الدماء ، وأعملت فى الناس الفتك والقتل ، ولذلك ظلت مرهوبة الى الآن كما أظهرت أسطورة الغولة قاتلة الأطفال ، ولك ان تتصور مدى الرعب الذى عقد ألسنته عمال الحفائر الاقصريين وهم يخرجون تمثال الغولة « سخمت » من تحت أطباق الثرى .

* * *

وفى قفط كانوا يرددون أسطورة أثبتها المقريزى فى خططه تتلخص فى أن المعبد الفرعونى المقام فى تلك البلدة تتولى حراسته فتاة سوداء تحمل على ذراعها طفلا صغيرا أسود مثلها ،

وترى هذه الفتاة فى الليالى القمرية ترتاد جنبات المعبد وفناءه حاملة طفلها ، هذه الفتاة الاسطورية ليست فى الحقيقة سوى ايزيس تحمل طفلها الرضيع حورس اذ ان قفط وهى كبتوس القديمة كانت محلا لعبادة الربة إيزيس ، وفيها معبدها .

* * *

اما أهالى دندرة فيرددون اسطورة اخرى عن المعبد الفرعونى هناك تتلخص فى أن أحد الملوك القدامى أودع امواله وذخائره فى نفق داخل هذا المعبد واقام على حراسته بقرة عظيمة لاتزال ترى إلى اليوم وهى تتنقل فى أرجاء المعبد اثناء الليل لتراقب كنزها المخبوء ، ورغبة فى سبك الأسطورة يضيفون أن فلاحا معينا ـ يحددون اسمه ـ استطاع ان يغافل البقرة وينتهب بعضا من هذا الكنز ، ولكنه لم يستفد بما أخذه ، إذ غاص فى ارض بيته ولم تستطع يداه أن تصل إليه . ولكن بغض النظر عن هذه التفاصيل يمكننا ان نرى بوضوح أن هذه البقرة الأسطورية ليست إلا ظل البقرة المقدسة « حتحور » التى اقيم معبد دندرة مركزا لعبادتها وترى مرسومة على جدرانه .

وفى بلدة أثريب ، وكانت قديما مركزا لعبادة الصقر « حورس » ، توجد أسطورة مماثلة اوردها المقريزى أيضا فى خططه عن حمامة بيضاء تحوم فترة من الزمن حول مذبح أحد الأديرة القديمة فى يوم معين من السنة .. هذه الحمامة ليست سوى الصقر « حورس » .

ونفس الخرافة تتكرر فى الوقت المعاصر عن معبد « خنسو » بالكرنك والبوابة البطلمية الضخمة المقامة أمامه ، إذ يقال ان قزماً مخيفا يعيش فوق البوابة ذا خلقة مشوهة وقامة قصيرة ممتلئة وله وجه عريض وعينان براقتان وأنف افطس ولسان متدل وذراعان طويلتان تصلان إلى الأرض . والأهالى يرهبونه بشدة ويتجنبون المرور بالقرب من البوابة ليلا لأن هذا القزم إذا اهتاج أخذ يرسل

صياحا مخيفا ويصب شروره على الجميع من ناس وحيوان . هذا القزم ويسمونه « عيط الله » ما هو إلا صورة طبق الأصل للمعبود المصرى القديم « بس » ذى اللسان المتدلى والملامح المتنافرة والذى اقيمت البوابة تكريما له . وقد ظلت ذكراه عالقة بأذهان الناس آلاف السنين بعد أن نسوا كل شىء عن أصله .

* * *

فنون ومهارات قديمة

إلى جانب مثل هذه الرواسب الفولكلورية المتنوعة المتخلفة عن العصور المصرية القديمة نجد أيضا ان المصريين المحدثين لديهم الوان من الفنون والمهارت توارثوها جيلا بعد جيل عن أجدادهم الفراعنة .

يقول أدولف إرمان إن أغانى الفلاحين والمراكبية التى تتردد اليوم بين الحقول الخضر وعلى صفحة النيل كان يردد انغامها من قديم الزمان فلاحو مصر الفرعونية وملاحوها ، ويكفى دليلا على ذلك أن الموال المصرى بمعانيه وألحانه يعتبر نسيج وحده فى العالم العربى ، فمن أين جاءته هذه الخاصية ان لم تكن ميراثا تتناقله الأجيال ؟ ويقول أدولف إرمان : ولست أدرى ما إذا كانت الثغثغة الأنفية المعينة التى تصاحب هذه المواويل والألحان هى أيضا ميراث من العصور القديمة ، ولكن من المؤكد أن حالة البهجة التى تصاحب الغناء هى نفس ما كانت عليه فى الماضى .

ومن الوان المهارات القديمة التى نجدها فى المصريين المحدثين تلك المقدرة غير العادية عل تحريك الأشياء الثقيلة وحملها باليسير من العون الآلى ، وتظهر هذه المقدرة بوضوح فى عمال البناء والتنقيب عن الآثار رغم اعتلال صحتهم وضعف بنيتهم ، يحكى عالم الآثار المرحوم محمد زكريا غنيم فى كتابه « الهرم الدفين » ان صديقا انجليزيا اخبره كيف كان يراقب فى دهشة وفزع محاولة نفر من الشبان المصريين الأقوياء الذين يرتدون الجلابيب نقل تمثال هائل من الجرانيت فى متحف الآثار المصرية ، كان هذا التمثال تبلغ زنته مائة طن أو اكثر ، ولكن الغلمان المصريين تكالبوا على التمثال بأدواتهم البسيطة التى لا تعدو قطعا من الحديد والخشب والحبال ، ومع صيحاتهم وتنهداتهم تأرجح التمثال بينهم وبدأ يتحرك معهم إلى مكانه الجديد ، كان هذا فنا قديما جاء من السلف ،

وهل يعجز أحفاد من حملوا صخور الأهرام على اكتفاهم العارية عن زحزحة تمثال ؟!

● ● ●

يقول الدكتور حسين مؤنس في كتابه « مصر ورسالتها » ..
ولعل بلدا من بلاد الأرض لاتصدق على حضارته صفة الاستمرار كما تصدق على مصر ، فإن مصر التى ولدت منذ نحو خمسة آلاف سنة لازالت هى بعينها اليوم لم يتغير فيها الدين على طول هذه الاحقاب إلا مرتين ولم تتغير اللغة إلا مرتين أيضا على حين أن بريطانيا مثلا لا يبعد تاريخها إلى أبعد من ألفى سنة تغير الدين خلالها مرتين واللغة أربع مرات على الأقل ، وأسبانيا يرجع تاريخها إلى الفين وخمسمائة سنة تغير الدين خلالها ثمانى مرات واللغة ست مرات ، أما جنسنا فلم يتغير فى جملته خلال هذه الأعصر إلا تغيرات طفيفة فى حين أن بلدا كإيطاليا تعاقبت عليه أجناس كثيرة غيرت عنصر السكان تغيرا هاما أكثر من مرة ونتيجة ذلك ان طبيعة الحياة فى مصر وجوهرها لم يختلف كثيرا رغم هذه الأحقاب المتطاولة بل ان العين تقع اليوم على مشاهد كانت موجودة كماهى اليوم أيام الفراعنة » .

ويفسر الدكتور جمال حمدان سبب هذه الاستمرارية بسيطرة ظروف طبيعية معينة على حياة مصر فى مختلف العصور ، فهذه الظروف ترسم خطط إدارة البلاد واستغلال مواردها على نحو واحد تقريبا ، ولذلك فإن أعمال أى من الفراعنة أو السلاطين أو الحكام تتكرر فيما عدا الأسماء والتواريخ ، ونمط الحياة والزراعة يمثل وحدة الحياة على ضفاف النيل » .

شخصية مصر : حـ١ ص ٤٧٨)

محتويات الكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٧٦٢٨ / ١٩٩٠

الترقيم الدولى ٥ ـ ٠٠٦٣ ـ ٠٨ ـ ٩٧٧ ـ ISBN